مجلة كلية الآداب بقنا (دورية أكاديمية علمية محكمة)

العشق الإلهي في أشعار النساء

(رابعة العدوية وعائشة الباعونية نموذجاً)

د. محمد مختار حسن محمد

دكتوراه في الأدب والنقد

كلية الآداب – جامعة جنوب الوادي

DOI: 10.21608/qarts.2023.211845.1684

مجلة كلية الآداب بقنا – جامعة جنوب الوادي – المجلد (٣٢) العدد (٦٠) يوليو ٢٠٢٣

الترقيم الدولي الموحد للنسخة المطبوعة ISSN: 1110-614X

الترقيم الدولي الموحد للنسخة الإلكترونية ISSN: 1110-709X

موقع المجلة الإلكتروني: https://qarts.journals.ekb.eg

العشق الإلهي في أشعار النساء

(رابعة العدوية وعائشة الباعونية نموذجًا)

الملخص:

يقوم هذا البحث بدراسة العشق الإلهي في أشعار النساء، ومدى مساهمة النساء في التعبير عن هذه الرياضة الروحية، وقد اتخذ البحث من رابعة العدوية وعائشة الباعونية نموذجا للدراسة، وقام البحث بالموازنة بين نتاج الشاعرتين في هذا الجانب. وقد أتت الدراسة بعنوان:) العشق الإلهي في أشعار النساء((رابعة العدوية وعائشة الباعونية نموذجًا.)

وقد جاء البحث في مقدمة وأربعة محاور وخاتمة كالتالي :

- مقدمة.
- المحور الأول (العشق الإلهي في أشعار النساء).
- المحور الثاني (العشق الإلهي في شعر رابعة العدوية).
- المحور الثالث (العشق الإلهي في شعر عائشة الباعونية).
- المحور الرابع (العشق الإلهي بين رابعة العدوية وعائشة الباعونية).
- خاتمة.
- ثبت بالمصادر والمراجع.

الكلمات المفتاحية: العشق الإلهي ، أشعار النساء ،رابعة العدوية ،عائشة الباعونية

حدود الدراسة:

تقع حدود البحث في دراسة أشعار النساء التى تتحدث عن العشق الإلهي ، خاصة شعر رابعة العدوية ، وشعر عائشة الباعونية الوارد في ديوان (فيض الفضل وجمع الشمل) لعائشة الباعونية .

أهداف الدراسة :

تسعى هذه الدراسة إلى تحقيق جملة من الأهداف لعل من أهمها :

- دراسة أشعار النساء التى تتناول العشق الإلهي .
- دراسة دور المرأة في إثراء فكرة العشق الإلهي في الفكر الصوفي.
- دراسة اصطباغ شعر المرأة في العشق الإلهي بالطابع الأنثوي .
- دراسة تطور فكرة العشق الإلهي ما بين رابعة العدوية وعائشة الباعونية .
- دراسة أثر النشأة والبيئة على مفهوم العشق الإلهي بين رابعة العدوية وعائشة الباعونية .

منهج الدراسة :

تقوم هذه الدراسة على المنهج التكاملي، الذي يجمع بين عدة مناهج، فقد استخدمت الدراسة المنهج التاريخي لدراسة الجوانب التاريخية لأخبار النساء الشاعرات قيد الدراسة، كما استخدمت الدراسة المنهج الوصفي لوصف وتحليل النصوص الشعرية قيد الدراسة، والمنهج المقارن للموازنة بين أشعار رابعة العدوية وأشعار عائشة الباعونية.

تساؤلات الدراسة :

تسعى الدراسة للإجابة عن الأسئلة التالية :

- ما مفهوم العشق الإلهي في أشعار النساء ؟
- ما مفهوم العشق الإلهي في شعر رابعة العدوية ؟
- ما مفهوم العشق الإلهي في شعر عائشة الباعونية؟
- كيف تطور مفهوم العشق الإلهي بين رابعة العدوية وعائشة الباعونية؟

الدراسات السابقة :

تناول العديد من الباحثين شعر رابعة العدوية بالدراسة ، بينما كان نصيب شعر عائشة الباعونية من الدراسة قليل . ومن أهم الدراسات السابقة ما يأتي :

- إبداع اللغة في الرمز الخمري عند شاعرة المتصوفة عائشة الباعونية . عباس عبد الحليم عباس . بحث منشور في مجلة نزوى الإلكترونية العدد ٢٠٠٩/٧/١٨/٥٢م .
- أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام . عمر رضا كحالة .ط٢ مؤسسة الراسالة ١٩٧٧م .ج١ .
- الدر المنثور في طبقات ربات الخدور زينب فواز ط١ مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة –مصر ٢٠١٤م .
- شهيدة العشق الإلهي رابعة العدوية عبد الرحمن بدوي ط٢ مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٦٢م

- شهيرات النساء في العالم الإسلامي بقلم صاحبة السمو الأميرة المصرية قدرية حسين نقله إلى العربية عبد العزيز أمين الخانجي ط١ مطبعة السعادة بمصر ١٩٢٤م ج٢.
- عائشة الباعونية الدمشقية أشهر أعلام دمشق أواخر عهد المماليك . فارس أحمد علاوي .ط دار معد للطباعة والنشر والتوزيع . دمشق سوريا ١٩٩٤م.
- عائشة الباعونية شاعرة .حسن الربابعة ، ط دار الهلال للترجمة اربد ١٩٩٨م .
- عائشة الباعونية شاعرة الشام وفاضلة الزمان . محمد محمود كالو، ط دار المجد للنشر، صنعاء ٢٠٢٠م .
- عائشة الباعونية فاضلة الزمان للصويركي. ط دار الكندي للنشر والتوزيع ٢٠٠٦م.

وتتفق هذه الدراسة مع الدراسات السابقة في تناول نتاج المرأة المتصوفة، في جانب العشق الإلهي، من حيث قدرة المرأة على المساهمة في التعبير عن تلك الرياضات الروحية ، وتختلف الدراسة الحالية عن الدراسات السابقة في دراسة تطور فكرة العشق الإلهي بين رابعة العدوية وعائشة الباعونية، وتأثر كل منهما بالبيئة والعصر الذى عاشت فيه، كما توازن الدراسة بين الشاعرتين من حيث الجوانب الروحية والمجتمعية، وبين النتاج الشعري لكل منهما.

المقدمة:

تظل المرأة العربية مستودع أسرار، ومضرب مثل لكل قدرة وقوة في شتى مجالات الحياة، وجوانبها المادية والروحية على حد سواء، فما من مضمار سباق، أوساحة مجد، إلا وتجد للمرأة فيها قصب السبق والريادة، فتبز الرجال في جنس ما برعوا فيه وأبدعوا، وما من مجال من مجالات حياة الأمة العربية، إلا وتجد فيه حضورا للمرأة، يقارب حضور فحول الرجال في ذلك المجال، أو ربما يساويهم، أو ربما يفوقهم أضعاف المرات، ويؤكد ذلك على مدى قدرة المرأة العربية، على التميز والريادة في شتى مجالات الحياة، المادية منها والروحية .

ولقد كان للمرأة في مجال الشعر العربي حضور متميز، ليس بوصفها محبوبة متغزل فيها فحسب، بل بوصفها شاعرة تقارع فحول الشعراء، وتتغلب عليهم، ليعترف لها أباطرة الفن بشاعريتها ، وليحكم النابغة للخنساء أنها أشعر من كل ذات مثانة، فتجيبه بوعي ذاتي عميق أنها أشعر من كل ذي خصيين أيضا.

وعندما يأتي الحديث عن شعر التصوف الإسلامي، تقفز في عقولنا أسماء لشعراء كبار، كالحلاج، وابن الفارض، والسهروردي، وغيرهم من عمالقة الشعر والفكر الصوفي، وفي الوقت ذاته لا نعدم أسماء لشاعرات عربيات، كرابعة العدوية، وعائشة الباعونية وغيرهما، ممن وصل إلينا شعرهن، أو ممن فقد شعرهن ولم يصل إلينا منه سوى النذر القليل، لتجد أن المرأة العربية كانت شقيقة للرجل في تلك الجوانب التعبدية ، ومنافسة له في تلك الرياضات الروحية التي تصل إلى حد الزهد في متاع الدنيا، والانقطاع للعبادة، والتبتل لله.

وفي مجال العشق الإلهي تجد أن المرأة نافست الرجال بقوة، فترى رابعة العدوية تنقطع لممارسة عشقها لربها في كوخ صغير، تاركة كل ما يشغلها عن محبة الله، لتصل لدرجة لا تجد في قلبها مساحة لأحد سوى الله، وللحد الذي تأتي فيه عائشة الباعونية لتجمع بين ممارسة عشقها لله وحياتها كأنثى وزوجة وأم ، وتغرق صفحات الأدب بسيل ضخم من الأشعار في حب الله ورسوله، وهذا ما جعل البعض يحكم عليها أنها في عصرها أشعر من الخنساء التي حكم بشاعريتها أساطين الشعر كما سلف .

ولم يكن حضور رابعة العدوية وعائشة الباعونية محض صدفة، أو انفرادة في زمن شعر المرأة العربية ، إنما كان ترتيبا منطقيا وجزءًا أساسيًا لحركية الشعر العربي عامة، والصوفي خاصة، ولم تكن رابعة وعائشة منفردتين من بين النساء في هذا الجانب، إنما تجد أن هناك شاعرات أخريات متبتلات وعاشقات ذائبات في الحب الإلهي من مثل : سلمونة الزاهدة، وميمونة السوداء ، وحيونة ، وريحانة الوالهة، على نحو ما سنفصله في موضعه.

المحور الأول : العشق الإلهي في أشعار النساء

إن دراسة العشق الإلهي في أشعار النساء أمر يحتاج إلى عميق بحث وتنقيب خلف النصوص التى تسعف الباحث بما يدرك به غايته، وليس هذا في قضية العشق الإلهي فحسب، بل في كل الأمور التى تخص المرأة في العصور السابقة " فلا جرم أن الباحث إذا أراد أن يبحث في المرأة العربية، أو المسلمة، يجد عقبة كؤود لا يذللها إلا إذا مكث ردحًا من الزمن منقبا في بطون الأسفار المطبوعة والمخطوطة، لعله يظفر بطلبه ويدرك

حاجته ، وليس ذلك سلس المطلب سهل المرام لكل من طلب ذلك."[1] وإنما مرجع ذلك إلى قلة المصادر التى تنقل شعر النساء في تراثنا العربي ، ولما ضاع من أشعارهن بفعل عوادي الزمان ، وعندما ينقب الباحث في التراث الصوفي الإسلامي يجد قدرا كبيرا من الصعوبة تعتري البحث، مع العودة بالزمان للوراء من أيام رابعة العدوية، ومن سبقها في مجال التصوف من النساء الزاهدات ، ولا تجد لهن نتاجا يقيم صورة شاملة عن توجهن وفكرهن الصوفي والمعرفي ، اللهم إلا ما وصل إلينا من شعر عائشة الباعونية ، وذلك لقرب زمنها، ولنسخها ديوانها بخط يدها وعناية بعض الباحثين به.

وعند البحث عن المرأة في كتب التراث الصوفي، نجد أن حضور المرأة في كتب كبار علماء التصوف قد أتى على استحياء ، أو ربما أتى يصحبه محاولات تبرير لتلك الفعلة على نحو ما سوف نبينه لاحقا، وعلى الرغم من تقديس كبار الصوفية للمرأة، وتقديم كل ألوان التبجيل للعابدات منهن ، إلا أننا لا نجد لهن نقولا وتراجم تفي بتكوين فكرة متكاملة عن شعرهن وفكرهن في التصوف ، إلا ما تنقله بعض المصادر من لقاء أحد أعلام التصوف من الرجال بإحداهن ، أو ذكر موقف له معها لنقل موعظة أو حكمة أو ما شابه ذلك.

وعلى الرغم من ذلك إلا أن للمرأة الدور الأكبر في حياة كبار علماء التصوف ، للحد الذي يصبح ذو النون المصري كالطفل بين يدي فاطمة النيسابورية ، التي راحت تعلمه معنى التصوف الحق، وللحد الذى يجلس فيه سفيان الثوري ومالك بن دينار بين يدي رابعة العدوية لتلقي الموعظة، ويتسابقان للذهاب إليها لطلب الراحة والزهد؛ وليقفا بين يديها في خجل من عظم زهدها وفنائها في محبة الله . ولولا قلة النقل في تلك المصادر

[1] –أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام . عمر رضا كحالة ط٢ مؤسسة الرسالة مصر ١٩٥٩م جـ ١ صـ .1

لغدونا الآن نملك كمًّا هائلا من أشعار النساء التي تقعّد لكل ألوان الممارسات التعبدية والتصوف الإسلامي منذ النشأة وحتى بلوغه عصرنا الحديث.

إن مشاركة المرأة للرجل في ميدان التصوف أمر بدأ منذ الفجر الأول للإسلام، تتسابق فيه الأرواح طاعة لربها دون النظر لكون تلك الروح تسكن جسد أنثى أم ذكر، ويدركها كل من يستشعر أثر وجود الله في خلقه،بغض النظر عن حاله الدنيوي فالتصوف " نزعة روحية يحسها الأغنياء كما يحسها الفقراء، ويدركها الفاجر كما يدركها العفيف، وكم من لفتة من لفتات الصدق تقع من رجل معروف بالطيش هي أقرب إلى التصوف والروحانية من أعمال كثير من المرائين الذين يلبسون مسوح الرهبان."[2] فالتصوف لم يكن حكرا على الرجال دون النساء، ففي الوقت الذى برز فيه رجال عظام في التصوف ، كان هناك نساء أكثر منهم تعبدا وانقطاعا لمحبة الله.

وعند التحدث عن النساء الزاهدات تقفز في ذهننا رابعة العدوية فقط ، ولا شك أنها من رائدات الزهد والتصوف، إلا أن هناك الكثيرات من النسوة الزاهدات العابدات المتبتلات، اللاتي أشعلن صفحات التاريخ بحر عشقهن لله ، وأغرقن الكون بدموع القرب منه والتلهف لرؤيته، والمتتبع لذكر هؤلاء النسوة يجد محاولات جيدة لجمع أخبارهن، من مثل ما قام به عبد الرحمن السلمي في كتابة " ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات " ليجمع لنا فيه ذكر أربع وثمانين عاشقة وزاهدة ووالهة ، وقد ذكر من بينهن – على سبيل التمثيل لا الحصر – ميمونة السوداء،وحيونة ،وريحانة الوالهة، ولبابة العابدة، ومريم البصرية، ومؤمنة بنت بهلول، ومعاذة بنت عبد الله العدوية،وسلمونة، وشبكة البصرية، ونسية بنت

[2] –التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق . زكي مبارك. ط١ مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة مصر ٢٠١٢م صـ .36

سليمان، وغيرهن من الزاهدات العابدات العاشقات لله، كلهن علمن الدنيا بأثرها معنى الحب والعشق في أعلى درجاته وأسمى غاياته.

والحقيقة أن هناك الكثيرين من شعراء التصوف الإسلامي قد تحدثوا عن الحب والعشق من الرجال مثل الحلاج وابن الفارض وغيرهما ، ولا يمكن إنكار عظيم دروهم في هذا الجانب، إلا أن النساء قد سابقنهم في العشق الإلهي، وحزن معهم قصب السبق في هذه الرياضة الروحية، وهذا الأمر بدهي، فالمتصوفة من الرجال والنساء يجب أن يخوضوا غمار المحبة والحديث عنها " والواقع أن أهل الحقيقة تكلموا جميعا في الحب؛ لأن هذه الحال هي الفيصل بينهم وبين أهل الشريعة الذين يعبدون الله طمعا في الثواب وخوفا من العقاب، ولا يستقيم حال المتصوف إلا إن خلص من دنياه وأخراه فلا يكون له مأرب غير لقاء الحبيب."[3] ، ومن ثمّ جاءت أشعارهم محملة بفيض من العشق والبكاء والتطلع للقاء الله .

العشق في عيون المتصوفة:

إن المدقق في أقوال المتصوفة عن العشق يجد أجمل المعاني التى يرسلونها كنبضات حب تعبر عن مكنون قلوبهم وصدورهم من محبة الله، " فقال ثمامة: العشق جليس ممتع، وأليف مؤنس،وصاحب ملك مسالكه لطيفة، ومذاهبه غامضة، وأحكامه جائزة، ملك الأبدان وأرواحها، والقلوب وخواطرها، والعيون ونواظرها، والعقول وآراءها، وأُعطي عنان طاعتها، وقود تصرفها ، توارى عن الأبصار مدخله، وعمي في القلوب مسلكه."[4] والجميل هنا في مقولة ثمامة هذه أنه جعل العشق جليسا قريبا وأليفا يأنس بوجوده، غير أنه لم يجعله جليسا عاديا، بل جعله ملكا لا يرد له حكم، يمتلك من صاحبه

[3] –التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق . زكي مبارك ج١ صـ .275

[4] –مصارع العشاق لجعفر بن أحمد بن الحسين السراج.ط١ مؤسسة هنداوي مصر٢٠١٧م جـ١ صـ .13

البدن والروح والقلب، حتى العيون والعقول، فالعيون لاترى إلا به، والعقول لا تنشغل بسواه، فهو المسيطر على كل حواس البدن، فصاحبه أسير له يتحسس ذاته في سلطان وجوده فلا يجد لها أثرا، فما ثمة إلا العشق بهيمنته وامتلاكه للعاشق.

ويرى سري السقطي الحب يفتت الأكباد ويفنيها حيث يقول: (الكامل) [5]

مَنْ لَمْ يَبِتْ وَالحُبُّ حَشْو فُؤَادِهِ لَمْ يَدْرِ كَيْفَ تُفَتَّتُ الأَكْبَادُ

ومنه أيضا قول (ذو النون المصري) : (الطويل)[6]

وَبَيْنَ ضُلُوعِي مِنْكَ مَالَكَ قَدْ بَدَا وَلَمْ يُبْدِ بَادِيَهُ لِأَهْلٍ وَلا جَارِ

وَبِي مِنْكَ فِي الأَحْشَاءِ دَاءٌ مُخَامِرٌ فَقَدْ هَدَّ مِنِّي الرُّكْنَ وَانْبَثَّ أَسْرَارِي

نساء مارسن العشق الإلهي :

يظن بعض الدارسين أن رابعة العدوية وحدها من النساء من أنشدت شعرا في العشق الإلهي، والواقع أن كثيرا من النساء قد أنشدن شعرا في هذا المقام ، فقد نسب النيسابوري في كتابه " عقلاء المجانين " بعض الأشعار لعابدة اسمها ريحانة ، تصف فيها عشقها وتعلقها بمحبة الله وزهدها في الدنيا ، منها قولها : (الكامل)[7]

حَسْبُ المُحِبِ مِنَ الحَبِيْبِ بِعِلْمِهِ أَنَّ المُحِبَ بِبَابِهِ مَطْرُوحُ

وَالقَلْبُ فِيْهِ إِنْ تَنَفَّسَ فِي الدُّجَى بِسِهَامِ لَوعَاتِ الهَوَى مَجْرُوحُ

وقولها : (الوافر)

---

[5]طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي . تحقيق أحمد الشرباصي .ط٢ مؤسسة دار الشعب مصر ١٩٩٨م صـ .21

[6] –طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي . تحقيق أحمد الشرباصي صـ 14

[7] –ينظر عقلاء المجانين للنيسابوري .ط دمشق ١٩٢٤م .

بِوَجْهِكَ لا تُعَذِّبْنِي فَإِنّي أُؤَمِّلُ أَنْ أَفُوزَ بِخَيْرِ دَارِ

مُنَجَّدَةٌ مُزَخْرَفَةُ العَلالِي بِهَا المَأْوَى وَنِعْمَ هِي القَرَارُ

وَأَنْتَ تُجَاوِرُ الأَبْرَارَ فِيْهَا وَلَولا أَنْتَ مَا طَابَ المَزَارُ

وقولها : (الكامل)

يَا ذَا الذِي وَعَدَ الرِّضَا لِحَبِيْبِهِ أَنْتَ الذِي مَا إِنْ سِوَاكَ أُرِيدُ

هذه الأشعار وغيرها تعبر عن مدى تعمق فكر المرأة المتصوفة في درجات العشق الإلهي، وأن الوجد الذي رصده الباحثون عند رابعة العدوية قد شاركها فيه بعض النسوة اللاتي جسدن صورة العشق والزهد ولذة القرب من الله، وأن تلك الرياضة الروحية لم تكن حكرا على رابعة العدوية، والذي يطالع كتاب " الروض الفائق " [8] للحريفيش يجد كما لا بأس به من قصص هؤلاء العابدات العاشقات الوالهات بحر العشق الإلهي، واللاتي قد كان أغلبهن من الجواري، فمنهن من إذا مستها نفحة نسيم الحب تركت الدنيا بما فيها، وراحت تتغنى بحبها لمحبوبها الحق، الذي أنقذ روحها من داء الانشغال بالغير والسوى، وألقى في قلبها نور محبته، وهداها ودعاها لمنادمته بخمر قربه وعرفانه، فينطلق لسانها بفيض شعر يعبر عن عشقها لله، فمنهن من قالت: (الطويل)[9]

أَبَى الحُبُّ أَنْ يَخْفَى وَكَمْ قَدْ كَتَمْتُهُ فَأَصْبَحَ عِنْدِي قَدْ أَنَاخَ وَطَنَّبَا

إِذَا اشْتَدَّ شَوْقِي هَامَ قَلْبِي بِذِكْرِهِ وَإِنْ رُمْتُ قُرْبًا مِنْ حَبِيْبِي تَقَرَّبَا

وَيَمْنَحُنِي وَصْلًا فَأَحْيَا بِهِ لَهُ وَيُسْكِرُنِي حَتَّى أَلَذَّ وَأَطْرَبَا

[8] –ينظر الروض الفائق في المواعظ والرقائق الشيخ سعيد الحريفيش ط مكتبة البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٩٤٩م

[9] –السابق صـ .141

المحور الثاني: العشق الإلهي في شعر رابعة العدوية

لقد تعددت المصادر التى ترجمت لرابعة العدوية[10]، وقد اختلفت تلك المصادر في ترجمة رابعة العدوية ونسبها ونشأتها، لكن معظمها اتفق على أنها كانت من أهل البصرة، وكانت مولاة لآل عتيك، وآل عتيك بطن من بطون قيس، ومن آل عتيك بنو عدوة؛ ولذلك سميت رابعة العدوية، وقد سيقت الإرهاصات حول مولدها ونشأتها ، فقد قيل إنها ولدت لأسرة فقيرة معدمة [11] لرجل شديد الفقر أقسم ألا يسأل مخلوقا حاجة أبدا، كان له ثلاث بنات، وكانت مولودته تلك الرابعة لذا سماها رابعة، قيل إن يوم مولدها لم يكن في بيتهم قطرة سمن ليدهن بها موضع خلاصها، ولا خرقة تلف فيها تلك المولودة، فلما ألحت الزوجة على زوجها أن يسأل جاره شيئا من ذلك رده الجار، فبكى الرجل حتى أخذته سنة من النوم، فرأى النبي في منامة فبشره أن رابعة ابنته من الصالحات، وأن سبعين ألفا من أمته يرجون شفاعتها يوم القيامة. وطلب النبي من والد رابعة الذهاب إلى عيسى بن زاذان أمير البصرة؛ ليخبره أنه رأى النبي أمس، ويخبره أن النبي يأمره أن يدفع له أربعمائة دينار، وذلك عن طريق كتابة ذلك في ورقة، يرسلها إلى الأمير، ويخبره أن دليل صدق قوله: إن النبي أخبره أن الأمير يصلي على النبي مائة مرة كل ليلة، وفي

---

[10] – ينظر ترجمتها في : صفة الصفوة ٤/٢٧-٣١، شرح مقامات الحريري ٤/ ٣٤٥-٣٤٧، وفيات الأعيان ٢/٢٨٥-٢٨٨،سير أعلام النبلاء ٨/ ٢١٥-٢١٧، العبر ١/٢٧٨ ، الوافي بالوفيات ١٤/٥١-٥٢، البداية والنهاية ١٠/١٩٣-١٩٤ وفيات سنة ١٨٥هـ ، طبقات الأولياء لابن الملقن ٤٠٨، النجوم الزاهرة ١/٣٣٠، الطبقات الكبرى للشعراني ١/٦٥-٦٦، شذرات الذهب ١/١٩٣، الدر المنثور في طبقات ربات الخدور٢٠٢-٢٠٣، أعلام النساء ١/٤٣٠-٤٣٢، الرسالة القشيرية صفحات ٣٢٩،٢٩٠،٢٦٢،تاريخ بغداد ٢/٤٠، إحياء علوم الدين ١٥٢٦،. طبقات الصوفية ويليه ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات ٣٨٧.

[11] – ينظر تذكرة الأولياء فريد الدين العطار ترجمة وتقديم وتعليق منال اليمني عبد العزيز ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٦م ج١/٢٥٩

ليلة الجمعة أربعمائة مرة، وقد نسيها الأمير ليلة أمس ، فليدفع كفارة ذلك أربعمائة دينار لوالد رابعة. دفعها الأمير بكل سرور وطلب من والد رابعة أن يطلب منه ما يشاء خاصة لتلك المباركة التى ولدت له.

مرت السنون ومات والدا رابعة، وأصاب البلاد جدب وقحط وتشردت تلك الأسرة الفقيرة، ووقعت رابعة في الأسر، فقد أخذها ظالم وباعها مقابل ستة دنانير. عانت رابعة مرارة اليتم والتشرد والرق، ظلت تعاني الظلم والاستعباد فترة ليست بالقصيرة في حياتها، وعلى الرغم من كل ذلك إلا أنها كانت تتعبد لربها وتتوسل إليه ليرضى عنها، ظلت على تلك الحال حتى أعتقها سيدها لما رأى من عبادتها وتعلقها بالله .

وبعيدا عن صدق كل ما ورد في تلك الروايات حول مولد رابعة ونشأتها ، إلا أننا نؤمن أنها ولدت في أسرة فقيرة في عصر اختلطت فيه كل ألوان التناقض من اللهو والمجون والانفتاح المبالغ فيه على الأمم والأخذ من ثقافاتها، وفي نفس الوقت وجود الزهد والتعبد والانقطاع لطاعة الله، وليس ذلك بغريب على حاضرة البصرة في ذلك العصر، حيث الثقافة والترف والانفتاح على ثقافات الأمم المختلفة.

والمصادر التى ترجمت لرابعة العدوية البصرية اختلفت في كل المعلومات حول رابعة، فقد اختلفت في سنة مولدها، فزادوا فيها وأقلوا لكي توافق أهواءً عندهم، والراجح أنها ولدت حوالي سنة ١١٠هـ . وقد وقع الاختلاف أيضا حول مراحل حياتها وتوبتها وزهدها وتعبدها، فالبعض يرى أنها كانت عابدة وقت رقها، فلما أعتقها سيدها خرجت إلى الحياة وانغمست في الملذات واللهو والغناء، والبعض يرى غير ذلك، وأكثر ما ورد إلينا من أخبار رابعة العدوية كان عن طريق فريد الدين العطار في كتابه " تذكرة الأولياء"،

فقد ذكرها العطار بقوله[12] : " إنها ذات الخدر الخاص، المستور بستر الإخلاص، المتقدة بنار العشق والاشتياق، المتحرقة إلى القرب والاحترام، كأنها مريم ثانية، صافية صفية، إنها رابعة العدوية – رحمة الله عليها ". والحقيقة أن ما أورده العطار عن رابعة العدوية معظمه روايات تحمل كثيرا من الخيال والتهويل، للحد الذى نرى فيه رابعة تطير في الهواء أو أنها تمشي على الماء، وما أكثر تلك الروايات في حديث التصوف ! ، "وفريد العطار رجل جامح الخيال" على حد تعبير عبد الرحمن بدوي[13] ، فلا يمكن قبول أخباره عن رابعة إلا إذا أيدتها المصادر الأخرى، كما أنه لا يمكن ردها كلها؛ لأنه من أكثر المصادر التى تحدثت عن رابعة العدوية .

ومما أدهشني أن العطار رغم احتفائه برابعة وذكره العديد من الكرامات لها إلا أنه يسوق في بداية ترجمتها الأعذار لنفسه ومجتمعه ليعلل ذكره رابعة بين الرجال قائلا: " فإن سألني أحد: لمَ ذكرتها في صف الرجال ؟ قلت له : قد قال السادة الأنبياء عليهم السلام: إن الله لا ينظر إلى صوركم. أي أن الأمر ليس بالصورة إنما بالنية. كما قال عليه السلام : " يحشر الناس على نياتهم"، فلو جاز الإلمام بثلثي الدين من عائشة الصديقة رضي الله عنها لجازت الاستفادة الدينية من أمة من إمائها. ولطالما كانت المرأة رجلا في طريق الله ...."[14]

---

[12] – تذكرة الأولياء فريد الدين العطار ترجمة وتقديم وتعليق منال اليمني عبد العزيز ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٦م ج١/٢٥٩

[13] – ينظر شهيدة العشق الإلهي رابعة العدوية عبد الرحمن بدوي ط٢ مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٦٢م صـ٨

[14] – تذكرة الأولياء فريد الدين العطارج١ صـ ٢٥٩.

العجيب هنا أن العطار يحاول أن يبرر سبب ذكره لرابعة بين سفر الأولياء الذى كتبه! ويحاول أن يرسل الأدلة والبراهين على أحقية النساء في الزهد والعبادة، وكأنه يستشعر أن المجتمع سوف يستنكر وجود امرأة بين الأولياء في كتابه.

ومما يلفت انتباهي تلك النظرة من المجتمع للمرأة، وكأن المرأة ليس لها الحق في أن تكون زاهدة عابدة، أو أن الولاية تقتصر على الرجال. فانظر إلى قول العطار " فإن المرأة التى تسلك الطريق إلى الله لا يمكن أن تسمى امرأة ..." يا للعجب فقد جرد المرأة من طبيعتها الأنثوية؛ لكي توافق هوى المجتمع الذكوري الذى لا يقبل بوجود المرأة عابدة زاهدة في مقام الولاية والعرفان، ولا يراها إلا مجرد آلة للذة والشهوة .

ولو نظرنا إلى ترجمة رابعة العدوية عند إحدى النساء اللاتي ترجمن لها، مثل الأميرة قدرية حسين لوجدناها تصفها بأنها :" كانت تفوق نساء زمانها، وتمتاز عليهن لا بالزهد والتقوى فحسب، بل بفضلها وعرفانها، بعلمها وأدبها، حتى رنت إليها الأبصار، وتطاولت نحوها الأعناق. وكان يتلذذ بصحبتها ويستفيد من معاشرتها أمثال الحسن البصري التقي الشهير، وشقيق البلخي الصوفي العظيم، وسفيان الثوري المجتهد الكبير، كل هؤلاء الأفاضل صاحبوها وجالسوها وحضروا مباحثها في الدين والعلم، فأجلوها وقدروا عقلها وذكاءها، وأعظموا حال زهدها وتقواها "[15].

ويظهر هنا البون الشاسع بين نظرة العطار ومجتمعه، ونظرة قدرية حسين لرابعة العدوية، فنظرة العطار تصنف البشر من حيث الجنس والنوع، رغم طريقة عرضها بمسحة دينية سطحية، وتسخير النصوص في غير موضعها، فقط للتدليل على صحة رؤيته،

[15] – شهيرات النساء في العالم الإسلامي بقلم صاحبة السمو الأميرة المصرية قدرية حسين نقله إلى العربية عبد العزيز أمين الخانجي ط١ مطبعة السعادة بمصر ١٩٢٤م ج٢ صـ ٤٩ .

وإقناع مجتمعه الذكوري، أما النظرة الثانية فترى رابعة على طبيعتها، وكونها عابدة زاهدة أديبة يجالسها كبار الصالحين والعباد؛ ليستفيدوا منها ومن علمها، امرأة يقتدي بها الرجال في الزهد والعشق الإلهي الذى أسسته رابعة كما سوف يتم توضيحه لاحقا .

وعلى الرغم من كثرة المصادر التى تناولت ذكر رابعة العدوية، إلا أن الباحث والمنقب في حياة رابعة وتاريخها الأدبي يقع في خضم متلاطم ومتباين من المعلومات، لا يكاد يطمئن إلى معلومة أو بيت شعري حتى يصدم بعكسها، أو نسبة ذلك البيت لغيرها من النساء أو الشعراء. الأمر الذي يجعل الباحث يقع في حيرة من أمره، فلا يقوى على تحديد صورة شاملة لحياة رابعة وأدبها " فماذا يقول مؤرخ التصوف الإسلامي لا عن الفترة الأولى من حياة رابعة فحسب، بل عن حياتها كلها، وهو لا يكاد يملك وثيقة واحدة يستطيع الاطمئنان إليها "[16]. وإن وجد تلك الوثيقة يجد أن الخيال والخرافة تضرب أعاصيرها بمنطقية أحداثها، ناهيك عن الخلط الذى حدث عند الكثيرين بين رابعة العدوية وأخرى سمية لها، وهي رابعة زوجة أحمد بن أبي الحوارى ،" فكثيرا ما يتم الخلط في نسبة بعض الأقوال إلى رابعة العدوية ، فتكرر نسبة الأقوال ذاتها إلى غيرها ممن يحملن اسم رابعة ، فكثيرا ما يتم نسبة القول ذاته إلى رابعة بنت سليمان الشامية، أو رابعة القيسية، أو رابعة المسمعية، وربما نقلت بعض المصادر القول ذاته لكل منهن في ترجمتها في نفس ذات الوقت "[17]. بل من الممكن أن يتم الخلط بينهن، ولا يكاد يفترق قول إحداهن عن الأخرى، بل إن الأمر تعدى ذلك بكثير، وهو الأمر الذى يدعو إلى التعجب بصورة

---

16 – شهيدة العشق الإلهي – رابعة العدوية . عبد الرحمن بدوي صـ ٧

17 – أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام . عمر رضا كحالة .ط٢ مؤسسة الراسالة ج١ صـ ٤٣٠– ٤٣٤

مستمرة، في تلك المصادر التى تترجم لبعض النساء [18]، حيث يذكر المصدر مثلا أبياتا شعرية ينسبها لرابعة الشامية زوجة أحمد بن أبي الحوارى، ثم ينسب الأبيات ذاتها لرابعة البصرية مع تغيير كلمة أو حرف، وقد يكون ذكر ذلك في صفحة واحدة أو في الصفحة التى تليها.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد في العديد من المصادر، بل تخطاه للخلط في تاريخ وفاة رابعة وموضع دفنها، فالبعض يرون أن رابعة العدوية قد توفيت سنة 135 هـ ، وممن ذكر هذا التاريخ ابن تغري بردي في " النجوم الزاهرة"[19] ، والمرتضى الزبيدي في " إتحاف السادة"[20] ، وابن شاكر الكتبي في " عيون التواريخ "[21] ، وابن العماد في " الشذرات"[22] . وهناك رأي ثان يرى أنها توفيت سنة 180 هـ ، وقد قال بهذا الرأي الذهبي وتابعه في ذلك الرأي عبد الرؤوف المناوي في " طبقات الصوفية"[23]. وهناك رأي ثالث يقول إنها توفيت سنة 185 هـ وذكر ذلك ابن خلكان في " وفيات الأعيان"[24] ، وابن شاكر الكتبي في " عيون التواريخ"[25].

---

[18] – ينظر الدر المنثور في طبقات ربات الخدور زينب فواز ط١ مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة –مصر ٢٠١٤م صـ ٣٣٧-٣٣٨

[19] – ينظر النجوم الزاهرة . ابن تغري بردي . ط دار الكتب المصرية ١٩٢٩م . ج٢ صـ .100

[20] – ينظر اتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين . المرتضى الزبيدي . ط دار الكتب العلمية .ج ٩ صـ ٥٧٦، صـ .681

[21] – عيون التواريخ . محمد بن شاكر الكتبي ج١ صـ . 330

[22] – ينظر شذرات الذهب في أخبار من ذهب. لابن العماد بتحقيق الأرناؤوط ط دار ابن كثير ٢٠٠٦م .ج١ صـ .193

[23] –طبقات الصوفية للمناوي. تحقيق محمد أديب الجادر ط. دار صادر بيروت ١٩٩٩م .

[24] –وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان تحقيق إحسان عباس ط صادر بيروت ١٩٧٨م ج٢ صـ 285

[25] –عيون التواريخ لمحمد بن شاكر الكتبي ج١ صـ 330

ووسط هذه الروايات الثلاث المختلفة يقف الباحث متحيرا، حيث لا يمكن قبول أو رفض رواية من الثلاث إلا بقيام دليل يؤكد صدق هذه أو ضعف تلك. ومن هنا فالرواية التي قال أصحابها إن رابعة توفيت سنه ١٣٥هـ، رواية أثبتت ذلك التاريخ لتجعل رابعة العدوية تلميذة للحسن البصري (31 هـ – 110 هـ)؛ ولكي تصدق تلك الحكايات التى كانت تروى عنهما، فكيف يمكن أن يكونا قد التقيا إذا كانت رابعة توفيت سنة ١٨٠هـ أو 185 هـ، بينما توفي البصري سنة ١١٠هـ ؟

وإنني لأتفق مع الرأي الذى يرجح وفاتها في عام ١٨٥هـ[26] خاصة أن هناك مجموعة من الأخبار لها مع أبي المهاجر رياح بن عمرو القيسي، وقد توفي حوالي سنة ١٨٠هـ أو 195 هـ. بل وصلتها الوثيقة بعبد الواحد بن زيد المتوفى سنة ١٧٧هـ . ومن ثم فإنني أرجح أن رابعة قد توفيت ما بين عامي 180 هـ و ١٨٥هـ .

أما موضع دفنها فقد ذهب البعض إلى أنها قد دفنت في بيت المقدس، وأن القبر الذى يقع على جبل المقدس لها، وذهب آخرون إلى أن قبرها بالبصرة، إلا أن ياقوت الحموي يحسم ذلك الخلاف حيث يقول :" يقال له قبر رابعة العدوية، وليس هو بقبرها، وإنما قبرها بالبصرة. أما القبر الذى هناك فهو قبر رابعة زوجة أحمد بن أبي الحوارى الكاتب ، وقد اشتبه على الناس "[27]

شعر رابعة العدوية :

إن المتأمل في الشعر الذي ينسب لرابعة العدوية يجد أن جل هذا الشعر قد جاء مبعثرا في كتب الأدب، ينسب تارة لها وتارة لغيرها، يضمنه ناقلوه بعض القصص والحكايات عن تلك الزاهدة العابدة، وعند التسليم بصحة نسبة هذه الأبيات لرابعة العدوية

[26] –شهيدة العشق الإلهي رابعة العدوية . عبد الرحمن بدوي صـ 104 –103

[27] –معجم البلدان ياقوت الحموي تحت لفظ "المقدس" ط دار صادر بيروت ١٩٩٣م .ج٤ صـ 601

يمكننا وصف ذلك الشعر بكونه أبيات تعبر عن حالة الوجد التى مرت بها رابعة، وهو يمثل زفرات قلب ذاب عشقا وتفانى في ذات الله.

قد أتى هذا الشعر في نتف بسيطة ، كتبت أبياته على عدد لا بأس به من البحور الشعرية، ولا تجد فيه تكلفا في اللفظ أو المعنى، فألفاظه سهلة بسيطة، ومعانيه قريبة للمتلقي، يغلب عليه سمت الشعر في صدر الإسلام. وعلى الرغم من أن رابعة لم تقصد الشعر لذاته إلا أن ما كتبته قد عبر بدقة عن حالها في العشق والانقطاع لعبادة الله والزهد فيما سواه.

إن المتتبع لشعر رابعة العدوية يجد أن شعرها تناثر بين الكتب التى أوردت أخبارها، ولا يخفى عليه أيضا أن كثيرا مما نسب إليها من أشعار قد نسب لغيرها من النساء، خاصة هؤلاء النسوة اللاتي تشابهن معها في الاسم على نحو ما أشرت سابقا. ومن ثم فإن تتبع شعرها أمر غاية في الصعوبة من ناحية سلامة نسبته إليها، غير أن عبد الرحمن بدوي قد كفانا مشقة ذلك بأن دقق في نسبة الأشعار لرابعة العدوية عن طريق ضبطها من المصادر التى ذكرت ذلك الشعر، والتأكد من صحة نسبته لرابعة العدوية أو غيرها، وذلك في كتابه " شهيدة العشق الإلهي ". ومن ثم يعتمد الباحث على ما أورده عبد الرحمن بدوي لرابعة من شعر بالإضافة إلى بعض المصادر الأخرى ، والتى يتم ذكرها عند الاستشهاد .

أما من الجوانب البلاغية فشعر رابعة يعتمد على الاستعارة التي تأتي واضحة دون تركيب، بينما يقل استخدامها للمحسنات البديعية، فهي لم تهتم بتزيين الأبيات وترصيعها، فالشعر عندها وسلية للتعبير فقط عمّا يدور في وجدانها من عشق .

زهدها وعبادتها :

تكاد تجمع المصادر على ورع رابعة العدوية وزهدها وانقطاعها للعبادة، بل وانقطاعها عن أسباب الدنيا وملذاتها، فيذكر أنها انقطعت للعبادة في كوخ صغير لا تملك فيه أدنى مقومات الحياة، إلا أنها تملكت ما هو أغلى من ذلك وهو الأنس بالله ومحبته . لقد مارست رابعة العدوية ضربا من الرياضة الروحية القاسية التى ينقطع فيها الإنسان لعبادة ربه دون التفكير في طعام أو شراب أو ملذات، للحد الذى ينحل معه جسدها ويجف ، والحد الذى تتماهى معه عن نفسها فلا تشعر بألم حين تدخل في عينها قصبة من حصيرها وهي تصلي . والحد الذى تروي معه الأرض بدموع عينيها شوقا إلى الله ومحبة له. وبعد طول تمرسها في رياضتها تلك وطول فنائها في محبة وعشق محبوبها الأوحد تنكشف لها حقيقة الدنيا والوجود والخلق والجنة والنار لتصل لعبادة الله من أجل محبة الله لا طمعا في الجنة أو خوفا من النار .

حقيقة لقد كثر الزهاد في عصر رابعة وما قبله وما بعده، إلا أن رابعة كانت الأولى التى أدخلت لفظ العشق الإلهي في التصوف الإسلامي صراحة، على النحو الذى نلتمس آثاره في بعض الديانات الأخرى، وهنا يتساءل الباحث مع عبدالرحمن بدوي حول أصول رابعة وأسرتها، " أكان أبوها فارسيا أم من عنصر أخر؟ ومتى أسلم؟ وعلى أية ديانة كان قبل إسلامه؟ ألا يمكن أن يكون مسيحي الأصل وأسلم ، أم الذى أسلم هو رابعة نفسها بعد أن عانت الرق ؟ أسئلة يمكن أن تثار وتتوارد على الخاطر دون أن يجد لها حلا وعنها جوابا ؛ وإنها لعلى أخطر درجة من الأهمية بالنسبة للباحث؛ لأنها تتصل بمشكلة بالغة الخطورة، هي مشكلة نشأة التصوف الإسلامي؛ لأن رابعة تنتسب إلى الجيل الأول

من الصوفية المسلمين الحقيقيين الذين أشاعوا في التصوف روحًا جديدة كل الجدة على التطور العام للحياة الروحية في الإسلام "[28].

مفهوم العشق الإلهي عند رابعة العدوية :

لقد كان لمفهوم العشق الإلهي عند رابعة العدوية لون فريد ، تمتاز به عن سابقيها ومعاصريها على حد سواء . فقد سئلت رابعة " كيف رأيت المحبة ؟ قالت : ليس للمحب وحبيبه بين، وإنما هو نطق عن شوق، ووصف عن ذوق . فمن ذاق عرف، ومن وصف فما اتصف. وكيف تصف شيئا أنت في حضرته غائب ، وبوجوده ذائب، وبشهوده ذاهب، وبصحوك منه سكران، وبفراغك له ملآن، وبسرورك له ولهان ! فالهيبة تخرس اللسان عن الإخبار، والحيرة توقف الجبان عن الإظهار، والغيرة تحجب الأبصار عن الأغيار، والدهشة تعقل العقول عن الإقرار، فما ثمّ إلا دهشة دائمة، وحيرة لازمة، وقلوب هائمة، وأسرار كاتمة، وأجساد من السقم غير سالمة، والمحبة بدولتها الصارمة في القلوب حاكمة ."[29]

إن الذى يمعن النظر في هذا القول يجد أنه محمل بكم هائل من الوجد والمحبة المشوبين بفلسفة عميقة ، تشي بمدى عمق فكر رابعة ومدى محبتها لخالقها، فرابعة تقر من البداية أنها متصلة بربها بصورة لا بين بينهما، فهي ترى أن ليس للمحب وحبيبه بين، وتعتمد في وصفها على المفارقة، فهي في حضرة محبوبها غائبة، وبوجوده ذائبة، تتملكها الدهشة التى تربط لسانها عن الوصف وتجعل عقلها في حالة سكر دائم ، الحال

[28] –شهيدة العشق الإلهي رابعة العدوية . عبد الرحمن بدوي صـ 10

[29] –شرح حال الأولياء تصنيف الشيخ عز الدين بن عبد السلام بن غانم المقدسي مخطوط رقم ١٦٤١ عربي بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ٢٥٣ أ

التى تورث جسدها السقم والنحول . للحد الذى يدفع عز الدين المقدسي أن يعلق على الحال السابقة لرابعة بأبيات شعر قائلا : (الكامل)[30]

وارَحْمَتَا لِلعَاشِقَيْنَ! قُلُوبُهُمْ فِي تِيهِ مَيْدَانِ المَحَبَّةِ هَائِمَهْ

قَامَتْ قِيَامَةُ عِشْقِهِمْ فَنُفُوسُهُمْ أَبَدًا عَلَى قَدَمِ التَذَلُّلِ قَائِمَهْ

إِمَّا إِلَى جَنَّاتِ وَصْلٍ دَائِمَهْ أَوْ نَارِ صَدٍّ لِلْقُلُوبِ مُلَازِمَهْ

لقد كان عشق رابعة عميقا للحد الذى سمت به عن بقية الناس، فهي تهيم في محبة الله لذاته لا طمعا في جنته أو خوفا من ناره، بل وترى أن هذا النحو من العبادة كعبد السوء الذى يطيع مولاه إما رغبا في عطائه أو رهبا من زجره وعقابه، " أما هي فكانت تناجي محبوبها قائلة : "إلهي إذا كنت أعبدك رهبة من النار فأحرقني بنار جهنم ، وإذا كنت أعبدك رغبة في الجنة فاحرمني منها، أما إذا كنت أعبدك من أجل محبتك فلا تحرمني يا إلهي من جمالك الأزلي "[31] .

إن رابعة هنا تصنع تحديا فريدا من نوعه في نوع المحبة التى تتحدث عنها وتصف نوع محبتها به، وهذا التحدى لا لنفسها فحسب، بل لكل معاصريها ممن يظهرون محبة الله ويتحدثون عنها .

فمن مثلها تجرد في المحبة الخالصة لله، التى أصبحت عشقا جنونيا تتفانى فيه رابعة في محبوبها لذاته، الأمر الذى يجعلها تطلب من معشوقها أن يحرقها بنار جهنم إن كانت تعبده خوفا من ناره، أو أن يحرمها من الجنة إن كانت تعبده رغبة فيها، فهي

---

[30] –السابق

[31] –رابعة العدوية . إعداد وتقديم خديجة القماح ومحمد علي ط٢ مكتبة رجب ١٩٨٣م صـ 16

تعبده لجماله الأزلي، لذاته ومن أجل ذاته فقط. فالذى يتحدث مع رابعة عن الحب الإلهي لابد أن يعرض حبه على تلك القاعدة الوعرة التى وضعتها رابعة لمعنى العشق الخالص.

لم تكن رغبة رابعة في الجنة كدار خلود، فقد " قيل لرابعة العدوية ما تقولين في الجنة؟ فقالت : الجار ثم الدار.فبينت أنه ليس في قلبها التفات إلى الجنة بل إلى رب الجنة"[32] ولم لا؟ فهؤلاء قوم شغلهم حب رب الدار عن الدار وزينتها، عن كل شيء سواه حتى عن أنفسهم، ومثالهم مثال العاشق المستهتر بمعشوقه المستوفي همه بالنظر إلى وجهه والفكر، فإنه في حال الاستغراق غافل عن نفسه لا يحس بما يصيبه في بدنه، ويعبر عن هذه الحال بأنه فني عن نفسه، ومعناه أنه صار مستغرقا بغيره وصارت همومه همًا واحدا وهو محبوبه ، ولم يبق في قلبه متسع لغير محبوبه حتى يلتفت إليه، فلا ينشغل عنه بنفسه ولا بغير نفسه.

ولم تكن رابعة متفردة في نوع عشقها وحبها للذات الإلهية فحسب، بل تعد أول من تناول محبة الله في عالم التصوف بهذه الطريقة المشحونة بالشوق الحسي والمشوب بمعاني الحب المتقدة بالشوق والوصل وخوف الهجر وغيرها من معاني الحب الحسي، وحقيقة أنه قد شارك رابعة بعض المتصوفة من معاصريها ومن هم بعدها فكرة العشق الإلهي، " لكن الذى تمتاز به رابعة على كل من سبقها هي أنها كانت أجرأ المتصوفين وأسبقهم إلى استخدام لفظ الحب صريحا، وتوجيهه إلى الذات العالية ، ومناجاته بذلك التعبير الرائع "[33].

---

[32] –إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي ط ابن حزم ٢٠٠٥م كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا صـ 1677

[33] –رابعة العدوية إعداد وتقديم خديجة القماح ومحمد علي صـ 28

إن ذلك الشوق المتقد في قلب رابعة ووجدانها لم يكتف بإشعال القلب والروح، بل تخطاه ليحرق الجسد بنار التحرق لوصل المحبوب ورؤيته، إلى الحد الذى جعلها تبكي بشدة وتنوح " يروى: أن رابعة كانت تنوح، فقالوا لها: يا عزيزة العالم لا نرى لك علة ظاهرة قط ودائما تتألمين وتنوحين . قالت : بلى لدي علة داخل صدري، جميع أطباء العالم عاجزون عن معالجتها، فمرهم الجراح هو وصال المحبوب، ونتعلل بالغد الذى نصل فيه إلى المقصود ..."[34]. لقد استحال عشقها إلى داء في صدرها وسرى في كل جسدها، فهي تشكو من ألم وداء لا دواء له إلا برؤية المحبوب، وكيف عسى ذلك أن يتحقق إلا في دار الخلود . " وما أبدع العبارة في وصف ما تشكوه! لقد ألحت عليها الرغبة في الرؤية، حتى استحالت مرضا، مرضا تألم له؛ لأن الحب قد صار من القوة والنفوذ بحيث صارت له آثار توغل في أعماق الروح فتصيبها بالعلة"[35].

ظلت رابعة على هذه الحال طيلة حياة زهدها، تتقد شوقا إلى الله وتتحرق بشدة لرؤية ذاته العلية في عالم الخلود، فرؤية الله هي السبيل الوحيد لخلاصها من شدة الشوق وحر لهيب حبها للذات الإلهية .

العشق الإلهي في شعر رابعة العدوية :

إن المتتبع لحياة رابعة العدوية يجد أن حياتها مرت بالعديد من الأزمات والمواقف الصعبة، خاصة الفترة التى سبقت توبتها وانقطاعها للعبادة، فمن الفقر إلى اليتم، ومن اليتم إلى الرق والاستعباد، ثم من بعده إلى الانفتاح على الحياة ومجالس الطرب والغناء، ثم العودة والتوبة والانقطاع إلى العبادة، ومما لاشك فيه أن كل تلك الأزمات قد تركت

[34] –تذكرة الأولياء فريد الدين العطار صـ 271

[35] –شهيدة العشق الإلهي رابعة العدوية . عبد الرحمن بدوي صـ 76

أثرها البالغ على نفس رابعة التى تأثرت بشدة بهول تلك المواقف، ومما لا شك فيه أن الشعر مرآة الوجدان والنفس، فقد تأثرت أشعارها بكل ما قاسته رابعة من آلام الحياة حتى انقطعت للعبادة والزهد .

فرابعة العاشقة لربها شديدة الوله به تتغنى بحبه وتسعد بقربه وتأنس به ، فهي تجد راحتها بعيدا

عن البشر في خلوتها حيث تقول[36] : (الرمل)

رَاحَتِي يَا إِخْوَتِي فِي خُلْوَتِي وَحَبِيْبِي دَائِمًا فِي حَضْرَتِي

لَمْ أَجِدْ لِي عَنْ هَوَاهُ عِوَضًا وَهَوَاهُ فِي البَرَايَا مِحْنَتِي

حَيْثُمَا كُنْتُ أُشَاهِدُ حُسْنَهُ فَهْوَ مِحْرَابِي ، إِلَيْهِ قِبْلَتِي

إِنْ أَمُتْ وَجْدًا ، وَمَا ثَمَّ رِضًا وَا عَنَائِي فِي الوَرَى! وَا شِقْوَتِي

يَا طَبِيْبَ القَلْبِ يَا كُلَّ المُنَى جُدْ بِوِصْلٍ مِنْكَ يَشْفِي مُهَجِتي

يَا سُرُورِي وَحَيَاتِي دَائِما نَشْأَتِي مِنْكَ وَأَيْضًا نَشْوَتِي

قَدْ هَجَرْتُ الخَلْقَ جَمْعًا أَرْتَجِي مِنْكَ وَصْلًا فَهُوَ أَقْصَى مُنْيَتِي

ولم لا تميل إلى العزلة والابتعاد عن الناس، وقد قاست كل ما قاسته بسبب ظلم الناس وطمعهم وانغماسهم في ملهيات الدنيا، فراحتها في خلوتها بعيدا عن البشر، تأنس بحبيبها الذى لاتجد ولا تريد عوضا عن هواه، فهي تشاهد حسنه في كل شيء من حولها، تصبو روحها إلى وصله، وقد هجرت كل الخلق لترتجي وصله وحده. فرابعة التى قاست

[36] – الروض الفائق في المواعظ والرقائق الشيخ سعيد الحريفيش ط مكتبة البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٩٤٩م جـ ١ صـ 111

ويلات العبودية والرق لابد أن تجد راحتها بمفردها بعيدا عن الذين ساموها الذل والهوان، " فالإنسان إذا ما ضاقت نفسه بالهوان والضعف، وإذا ما استبد به الشك في الناس وإنسانيتهم إلى حد الوحشة منهم بحث عن قوة أخرى يلوذ بها، قوة أكبر من قوة البشر، وأقدر على البشر من أنفسهم على أنفسهم، وهكذا لا يلبث المستضعف الحائر البائس أن يتسامى بنفسه هاربا من عالم المادة إلى عالم روحاني يستشعر فيه عزاء وتسرية ."[37]

فلقد كان حب رابعة لخلوتها والابتعاد عن الناس هربا من العبودية ومحاولة صادقة لتحرير نفسها من الداخل،" فالنفس النبيلة إن أرغمتها الحياة الخارجية بقهرها المادي على العبودية انطوت على نفسها كيما تحررها في الباطن؛ وهذا التحرير الباطن لابد أن يتم في عالم أخر غير العالم المادي الواقعي الذى لا تجد فيه غير الاستعباد؛ ومن هنا تنصرف إلى أن تطلب الملكوت الأعلى ."[38]

ومن ثمّ فقد كانت رحلة العشق الإلهي عند رابعة ضرورة ملحة للخلاص من آثار الاستعباد عن طريق الانطواء على الذات لتحريرها من الداخل، مستعينة بذلك بالقدرة الإلهية المطلقة التى لا تفوقها قوة؛ للتخذها ملاذا وطريقا لإيجاد ذاتها في عشق إلهي عفيف عنيف في آن واحد .

وعلى الرغم من أن عبد الرحمن بدوي يشك في نسبة هذه الأبيات لرابعة العدوية، وذلك بسبب المناسبة التى قيلت فيها من طلب زواجها، وأنه ربما تم الخلط في ذلك بينها وبين رابعة زوجة أحمد بن أبي الحوارى، إلا أنني لا أجد هذا السبب كافيا للشك في نسبة

---

[37] –رابعة العدوية إعداد خديجة القماح ومحمد علي أحمد صـ 12.

[38] –شهيدة العشق الإلهي رابعة العدوية . عبدالرحمن بدوي صـ .12

هذه الأبيات لرابعة العدوية وردها ، فبعيدا عن صدق المناسبة وكذبها، فإن الأبيات تتناسب مع أسلوب رابعة وتتوافق مع وجهتها في العشق الإلهي .

لقد صار الحب الإلهي شغل رابعة الشاغل وطريقها للخلاص في الدنيا والأخرة، لقد أدمنته حتى أمسى بغيتها ونعيمها، ووجهة تقربها إلى الله لطلب رضاه عنها ، " فقد كانت تنظم الشعر في هواها الإلهي قائلة : (خفيف)

حُبُكَ الآنَ بُغْيَتِي وَنَعِيمِي وَجَـلَاءٌ لِعَيْنِ قَلْبِ الصَّادِي

إِنْ تَكُنْ رَاضِيًا عَلَيَّ فَإِنِّي يَا مُنَى القَلْبِ قَدْ بَدَا إِسْعَادِي "[39]

وتارة تعلن أنها ليس لها سوى محبوبها ، وأنها تطلب عفوه ورضاه ، وتخبره أن قلبها قد أبى أن يهوى سواه فتقول[40] : (خفيف)

يَا حَبِيْبَ القَلْبِ مَالِي سِوَاكَ فَارْحَمِ اليَومَ مُذْنِبًا قَدْ أَتَاكَا

يَا رَجَائِي وَرَاحَتِي وَسُرُورِي قَدْ أَبَى القَلْبُ أَنْ يُحِبَّ سِوَاكَا

لقد استغنت رابعة عن الدنيا ومن فيها بحبها وأنسها لله، فقد خاضت رابعة صنوف الحب في الدنيا فما وجدت راحتها إلا في رحاب الله " فهي قد جربت الحب بنوعيه الشهواني والروحي ، وتأرجحت بينهما ، ثم آثرت الحب الروحي ، فتدلهت في حب الله وتفانت في هذا الحب إلى درجة إنكار الذات والإرادة ".[41]

[39] – رابعة العدوية إعداد خديجة القماح ومحمد علي أحمد صـ 17

[40] –الروض الفائق في المواعظ والرقائق للشيخ الحريفيش صـ 111

[41] – –رابعة العدوية إعداد خديجة القماح ومحمد علي أحمد صـ 22

وإذا سلمنا بصحة ما ذهب إليه البعض أن رابعة قد عاشت فترة من حياتها منغمسة في اللهو والشراب والمجون، فمن الضروري أن يتأثر شعرها ببعض مفردات تلك المرحلة ، ويظهر ذلك في قولها :[42] (الكامل)

كَأْسِي وَخَمْرِي وَالنَّدِيْمُ ثَلَاثَةٌ وَأَنَا المَشُوقَةُ فِي المَحَبَّةِ رَابِعَهْ

كَأْسِي المِسَرَّةُ وَالنَّعِيْمُ يُدِيْرُهَا سَاقِي المُدَامِ عَلَى المَدَى مُتَتَابِعَهْ

فَإِذَا نَظَرْتُ فَلَا أَرَى إِلّا لَهُ وَإِذَا حَضَرْتُ فَلَا أُرَى إِلّا مَعَهْ

يَا عَاذِلِي إِنّي أُحِبُ جَمَالَهُ بِاللهِ مَا أُذْنِي لِعَذْلِكَ سَامِعَهْ

كَمْ بِتُّ مِنْ حَرْقِي وَفَرْطِ تَعَلُقِي أُجْرِي عُيُونًا مِنْ عُيُونِي الدَّامِعَهْ

لَا عَبْرَتِي تُرْقَا وَلَا وَصْلِي لَهُ يَبْقَى، وَلَا عَيْنِي القَرِيْحَةُ هَاجِعَهْ

يظهر جليا من خلال الأبيات تأثر رابعة بمفردات تلك الفترة، حيث استخدمت مفردات مثل (كأسي – خمري– النديم – ساقي المدام – عاذلي – فرط تعلقي) فكلها مفردات تمت بصلة لمجالس الطرب والشراب، غير أن هذا النمط من الوصف معروف لدى الصوفية، ولم تكن رابعة الوحيدة من استخدمت ذلك الأسلوب، فشعراء كثيرون في الصوفية يتغنون بالخمر في أشعارهم، وهذا نمط يحمله شعراء الصوفية على الرمزية، بحيث تصبح الخمر رامزة للحقيقة والتحقق والوصول . فلم تكن رابعة بدعا بين شعراء الصوفية في ذلك غير أنها هي من الجيل الأول الذى أدخل هذا اللون من ذكر الخمر في شعر العشق الإلهي .

[42] – شرح حال الأولياء تصنيف الشيخ عز الدين بن عبد السلام بن غانم المقدسي مخطوط رقم ١٦٤١ عربي بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ٢٥٣ أ

وأحيانا تجد أن رابعة عندما تتغنى بعشقها الإلهي مفضلة أسلوبا يصح أن يستخدم في الحب الحسي تجاه شخص محسوس، غير أنها تستخدمه مع الذات الإلهية ، وذلك من مثل قولها :[43] (الخفيف)

يَا سُرُورِي وَمُنْيَتِي وَعِمَادِي وَأَنِيْسِي وَعُدَتِي وَمُرَادِي

أَنْتَ رُوحُ الفُؤَادِ أَنْتَ رَجَائِي أَنْتَ لِي مُؤْنِسٌ وَشَوقُكَ زَادِي

أَنْتَ لَوْلَاكَ، يَا حَيَاتِي وَأُنْسِي مَا تَشَتَّتُ فِي فَسِيْحِ البِلَادِ

كَمْ بَدَتْ مِنَّةٌ ، وَكَمْ لَكِ عِنْدِي مِنْ عَطَاءٍ وَنِعْمَةٍ وَأَيَادِي

حُبُّكَ الآنَ بُغْيَتِي وَنَعِيْمِي وَجِلاءٌ لِعَيْنِ قَلْبِي الصَّادِي

لَيْسَ لِي عَنْكَ مَا حَيِيتُ بَرَاحٌ أَنْتَ مِنِّي مُمَكَّنٌ فِي السَّوَادِ

إِنْ تَكُنْ رَاضِيًا عَلَيَّ فَإِنِّي يَا مُنَى القَلْبِ قَدْ بَدَا إِسْعَادِي

وقد علق عبد الرحمن بدوي[44] على هذه الأبيات بأنها أبيات محملة بالطابع الحسي ، وأن الخطاب هنا يصلح أن يتجه إلى شخص حسي ، كما يصلح – بصعوبة – أن يتجه إلى الله . ولعل ما يطمئن إليه قلبي أن هذا الشعر والذى سبقه هنا هما من أول ما قالته رابعة شعرا ، حيث كانت حديثة العهد بتجربة التوبة والعشق الإلهي، حين حاولت صياغة ذلك شعرا، فالتجربة من الجانبين وليدة وحديثة عهد عند رابعة، فلا تستطيع رابعة وقتها الفصل التام بين العالم الحسي والروحي ، فهي ما تزال تحاول الخلاص من المحسوس إلى عالم الروح، ومن الطبيعي أن تعبر عن ذلك الشعور الوليد

[43] –الروض الفائق في المواعظ والرقائق للشيخ الحريفيش صـ 117

[44] –شهيدة العشق الإلهي رابعة العدوية . عبد الرحمن بدوي صـ 25

بمفردات العالم الحسي وبصورة مباشرة . " وقد هدتنا التجارب إلى أن المحبين في العوالم الروحية كانوا في بدايتهم محبين في الأودية الحسية، والهيام بالجمال الإلهي لا يقع إلا بعد الهيام بالجمال الحسي ... والمحبون في الأودية الحسية لا يتجهون إلى العوالم الروحية إلا بعد أن تدلهم الدنيا على أن الجمال الإنساني كالظل يتحول ويزول ."[45]

لكن سرعان ما يتطور العشق الإلهي عند رابعة، وينتقل من عالم الحسوس إلى عالم الروح التى تأنس فيه رابعه بمعشوقها الأوحد، ليصطبغ شعرها بلمسات الحزن والشوق والوداعة واللهفة، "فالماجنون حين يزهدون يصبح شعرهم قيثارة تندب بأوتار الندم والخوف، ويمسون ولهم شمائل تنفح بالوداعة واللين."[46] ولم يتوقف حبها على شكل واحد لمعشوقها، إنما نما وتطور بحيث أصبح الحب عندها حبين ، تحب الله لذاته وكماله وجلاله ، وقد أغلقت قلبها فلم يعد فيه مساحة لأحد سوى الله . حيث نراها تقول :[47] (متقارب)

عَرَفْتُ الهَوَى مُذْ عَرَفْتُ هَوَاكَا وَأَغْلَقْتُ قَلْبِي عَمَّنْ سِوَاكَا

وَقُمْتُ أُنَاجِيْكَ يَا مَنْ تَرَى خَفَايَا القُلُوبِ وَلَسْنَا نَرَاكَا

أُحِبُّكَ حُبَّيْنِ، حُبَ الهَوَى وَحُبًّا لِأَنَّكَ أَهْلٌ لِـذَاكَا

فَأَمَّا الذِى هُوَ حُبُّ الهَوَى فَشُغْلِي بِذِكْرِكَ عَمَّنْ سِوَاكَا

وَأَمَّا الذِى أَنْتَ أَهْلٌ لَـهُ فَكَشْفُكَ لِي الحُجْبَ حَتَّى أَرَاكَا

---

[45] – التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق . زكي مبارك ط مؤسسة هنداوي للتعليم والنشر مصر ٢٠١٢م جـ١ صـ 279

[46] –التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق . زكي مبارك صـ 89

[47] –ينظر اتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين . المرتضى الزبيدي . ط دار الكتب العلمية .ج ٩ صـ ٥٧٦، صـ 681

فَلَا الحَمْدُ فِي ذَا وَلَا ذَاكَ لِي وَلَكِنْ لَكَ الحَمْدُ فِي ذَا وَذَاكَا

وعلى الرغم من وجود تلك الأبيات في مصادر متعددة وبروايات مختلفة ، وربما اختلفت قصتها من موضع لأخر، فتارة هي لرابعة وتارة أخرى لجارية تجلس على البحر وغيرها، غير أن الأبيات تشتهر نسبتها لرابعة وهو الراجح عندي فأسلوبها يتوافق مع شعر وأسلوب رابعة، إلا أن الأبيات تشي بمدى تطور العشق الإلهي عند رابعة وانتقالها من العالم الحسي إلى العالم الروحي ، وذلك من خلال استخدامها بعض المفردات والجمل من مثل (قمت أناجيك– خفايا القلوب– شغلي بذكرك – كشف الحجب – إلخ) الأمر الذى يدل على مدى تطور أسلوب رابعة ومسلكها في العشق الإلهي .

ولم يتوقف الأمر عند ذلك الحد، بل تخطاه إلى كونها ذائبة في المحبة، حاضرة بجسدها بين جموع من جالسها ، غائبة عنهم بروحها، فهي تحلق في سماوات العشق والمحبة الإلهية، حيث تقول:[48] (الكامل)

إِنِّي جَعَلْتُكَ فِي الفُؤَادِ مُحَدِّثِي وَأَبَحْتُ جِسْمِي مَنْ أَرَادَ جُلُوسِي

فَالجِسْمُ مِنِّي لِلجَلِيْسِ مُؤَانِسٌ وَحَبِيْبُ قَلْبِي فِي الفُؤَادِ أَنِيسِي

وتظل رابعة تجتهد في العشق الإلهي وتتدرج فيه حتى تصل إلى مقام الخلة، وهو مقام قال عنه صاحب (جامع الأصول): " الخلة هي مشتقة من تخلل الشيء في الشيء . وسمي الخليل خليلا لتخلل خليله في قلبه ، فوجوده مستهلك في وجوده. فإذا تكلم تكلم

[48] –ينظر اتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين . المرتضى الزبيدي . ط دار الكتب العلمية .ج ٩ صـ ٥٧٦، صـ 681

فيه.وإذا سكت فهو نصب عينيه في كل حال "[49] ، كذلك كانت ترى رابعة حالها مع الله، فمن حبها له وأنسها به ارتقت إلى مرتبة الخلة تلك، ومما استدل به صاحب قوت القلوب على أن رابعة قالت بمقام الخلة قوله " ومن قولها النادر في مقام الخلة : (الخفيف)

وَتَخَلَّلْتَ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنِّي وَبِهِ سُمِّيَ الخَلِيْلُ خَلِيْلا

فَإِذَا مَا نَطَقْتُ كُنْتَ حَدِيْثِي وَإِذَا مَا سَكَتُّ كُنْتَ الغَلِيلا

ويبدو أن هذا الأمر نما من بعد رابعة حتى تحول مذهبا عند الروحانية، فقد قال به مُجالس رابعة رياح القيسي، وانتشر من بعده وتطور بصورة يسقط فيها الصوفي عنه الناسوت ليصبح لا يحمل في وجدانه سوى اللاهوت على حد تعبير عبد الرحمن بدوي[50].

ومن ثمّ لقد كانت رابعة أول من أدخلت فكرة العشق الإلهي في التصوف الإسلامي بصورة تتجاوز الحب إلى العشق وبمفردات صريحة وأسلوب مباشر. فالعشق الإلهي عند رابعة كان نتاج حياة رابعة المليئة بالأحداث والأزمات ، فتعرض رابعة للرق والاستعباد أثر في توجيه رابعة نحو الانطواء على ذاتها والبحث عن ذاتها في قوة أعظم من قوة البشر، كما أن الفترة التى انغمست فيها رابعة في الملذات ومجالس الطرب والغناء قد أثرت في نوعية حبها وإدخالها مفردات العشق الحسي في الحديث عن الحب الإلهي . ولقد نما الحب الإلهي عند رابعة من العالم الحسي إلى عالم الروح ، بل وصل إلى مقام الخلة الذى أصبحت رابعة فيه لاترى ولا تسمع سوى الله .

[49] –[2]جامع الأصول في أحاديث الرسول لابن الأثيرط٣ دار ابن الأثير ٢٠٠٣م وقوت القلوب في معاملة المحبوب لأبي بكر المكي ط صادر بيروت ١٩٩١م .

[50]–ينظر شهيدة العشق الإلهي عبد الرحمن بدوي صـ 62 ،61

المحور الثالث : العشق الإلهي في شعر عائشة الباعونية

عائشة الباعونية [51]:

اسمها وكنيتها ونسبها :

"هي عائشة الباعونية بنت القاضي يوسف ابن القاضي أحمد بن ناصر بن خليفة بن فرج بن عبد الله بن يحيى بن عبد الرحمن المسلماني، الشهيرة بـ (بنت الباعوني)وكنيتها أم عبد الوهاب" [52] ، وأما نسبها فالباعونية " وبذا تكتمل حلقة الاسم فتكون أم عبد الوهاب عائشة بنت يوسف بن أحمد ابن ناصر الباعوني ، نسبة إلى باعون القرية التابعة إلى عجلون في الأردن."[53]

مولدها ونشأتها :

لقد عاشت عائشة الباعونية عمرها في ظل الدولة المملوكية، وقد عاصرت ظهور الدولة العثمانية ، وقد اختلف في تحديد عام مولدها ، إلا أن " الذى لاريب فيه أنها ولدت

---

[51] – ينظر ترجمتها في :
متعة الأذهان لابن طولون ٨٧٨/٢، در الحبب لابن الحنبلي ١/ ١٠٦٠، الكوائب السائرة للغزي ١/ ٢٨٨، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون لإسماعيل باشا ٩٦،٧٣٢، ١٠٨١، شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد ١١١/٨، هدية العرفين لإسماعيل باشا البغدادي ٥/ ٤٣٦، الدر المنثور في طبقات الخدور لزينب العاملية ٦٤/٢، الأعلام للزركلي ٣/ ٢٤١، معجم الشعراء لكامل الجبوري ٢٥/٣، نساء من التاريخ لأحمد خليل جمعة ٣٩٥، عائشة الباعونية فاضلة الزمان للصويركي .45 –11

[52] –نظم العقيان في أعيان الأعيان للسيوطي ، تحرير فيليب حتى ط المكتبة العلمية بيروت ١٩٢٧ صـ ١٧٨، ودر الحبب في تاريخ أعيان حلب لابن الحنبلي ، تحقيق محمود الفاخوري ويحيى عبارة ،ط وزارة الثقافة ،دمشق ١٩٧٣م جـ١ صـ .1060

[53] –ديوان فيض الفضل ولم الشمل لعائشة الباعونية ، تحيق أسعد عرار ، ط دار الكتب العلمية بيروت ٢٠١٠م صـ .8

في المائة الثامنة، ولعلها في منتصفها، أو قبل ذلك، أو بعده بقليل، أما وفاتها فهي ثابتة على وجه التعيين والإحكام، فقد كانت سنة ٩٢٢هـ ." [54]

نشأت عائشة الباعونية في دمشق وترعرعت فيها ، وقد قضت فيها فترة طفولتها وشبابها ، وقد نشأت في " بيت علم وفضل ، شب فيه الأدب وترعرع فيه الفقه، ونما في جنباته زهد وتصوف، ودارت على جلسات موائده أحكام الفقه والفتيا، فقد كان أبوها وجدها قاضيين، أما عمّاها إبراهيم ومحمد وعمهما إسماعيل وأخواها فقد كانوا من نوابغ العلماء في الفقه والحديث والتصوف والتاريخ والأدب، فنهلت من حياضهم، وجنت من شهد رياضهم ."[55] وقد حفظت عائشة القرآن الكريم وهي بنت ثماني سنوات، وقد اطلعت على كتب العلم والفقه والأدب واللغة، " فقد تعلمت على أيدي أشهر علماء دمشق وشيوخها، فأخذت عنهم الفقه والنحو والعروض، وكان في مقدمتهم والدها الشيخ جمال الدين يوسف الباعوني ، وأستاذها الشيخ الأرموي، وجمال الحق إسماعيل الحوراني ".[56]

ومن ثم فلقد نشأت الباعونية في أسرة دأبها العلم والفقه والقضاء، ببيت يعمه الإيمان وتحدوه نزعات التصوف التى سيطرت على العصر المملوكي كله، حتى أنه عرف بعصر التصوف، نمت عائشة في محيط وكأنه بحر علم وإيمان متلاطم تقتدي فيه بمحيطها من رجال العلم وشيوخه الذين تتلمذت على أيديهم. " ولعل الباعونية التى درجت في بيت علم وفقه وأدب وقضاء ووجاهة أفادت من بعض حلقاته، وهي لم تشب عن الطوق بعد

---

[54] –السابق صـ .13

[55] –عائشة الباعونية شاعرة .حسن الربابعة ، ط دار الهلال للترجمة اربد ١٩٩٨م صـ .42–41

[56] –شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي . ط دار المسيرة بيروت ١٩٧٩م جـ١ صـ .111

، وتنشقت عبق العلم في خدرها ، وربما كان بعض أفراد أسرتها أساتذتها الأوائل جريا على سنة التدريس الباعوني ."[57]

فلقد أثرت سنوات طفولتها وعوامل نشأتها في تكوين شخصيتها حتى خرجت لنا عائشة الباعونية مثالا للفتاة المسلمة التى تشبعت علمًا وفقهًا وأدبًا وشعرًا، ونراها تتحدث عن نفسها فتقول : " وكان مما أنعم الله به علي أنني بحمده لم أزل أتقلب في أطوار الإيجاد، في رفاهية لطائف البر الجواد، إلى أن خرجت إلى هذا العالم المشحون بمظاهر تجلياته، الطافح بعجائب قدرته وبدائع آياته ، المشوبة موارده بالأقدار والأكدار، الموضوع بكمال القدرة والحكمة للابتلاء والاختبار، دار ممر لا بقاء لها إلى دار القرار، فرباني اللطيف الرباني في مشهد النعمة والسلامة، وغذاني بلبان مدد التوفيق لسلوك سبيل الاستقامة، وفى بلوغ درجة التمييز، أهلني الحق لقراءة كتابه العزيز، ومنّ علي بحفظه على التمام ولي من العمر حينئذ ثمانية أعوام . ثم لم أزل في كنف ملاطفات اللطيف حتى بلغت درجة التكليف ، فعند ذلك أماط عني حجاب النفس، وكشف عني ستور اللبس، وشملني بنفحاته الربانية ، وأسعفني بجذباته الخفية ، وجعل تربيتي وترقيتي ومحوي وتصفيتي على يد مدد سلطان الأولياء فى دهره وتاج الأصفياء في عصره، جمال الحق والدين، السيد الجليل أبي الأقطاب قطب الوجود إسماعيل الحوراني – قدس الله سره ورضي عنه– ثم على يد مدد خليفته مقامًا وقربًا واتصالًا ، محي الدين يحيى الأرموي أمدّ الله ببركاته النامية مدة حياته ووصلنا في كل نفس ببركاته واتصال ممداته."[58]

---

[57] –عاشة الباعونية شاعرة . حسن الربابعة صـ .45

[58] –در الحبب في تاريخ أعيان حلب لابن الحنبلي .تحقيق محمود الفاخوري ويحيى عبارة .ط وزارة الثقافة دمشق ١٩٧٣م جـ١ صـ .1062

وهذا النص على طوله يوضح على وجه التحديد والتفصيل نشأة عائشة الباعونية، فقد سجلت في هذا النص مراحل نشأتها ومحيط أسرتها التى نشأت وترعرعت فيها، كما أنها ذكرت لنا مشايخها الذين تتلمذت على أيديهم، والذين تكن لهم قدرا مهولا من التعظيم والتقديس، كما لا يخفى على متفحص نصها هذا تلك الشحنات الإيمانية لدى الباعونية، وكيف توضح أنها نمت وتربت على النفحات الربانية والجذات الإلهية، وكيف ترعرعت في نعيم تربية الله لها وجذبه لها منّة وفضلا منه، كما لايخفى أيضا هذا الكم الهائل من التعبيرات الصوفية التى أغرقت كلامها بها، وذلك مرجعه لمحصلة شخصيتها من نشأتها ومحيط أسرتها وتعاليم مشايخها .

ومن ثم " يتبين لنا مما سبق أن عائشة الباعونية اكتسبت من أسرتها الشيء الكثير، فهي مثل جميع علماء أسرتها حفظت القرآن الكريم وهي صغيرة، وسلكت طريق التصوف متأثرة بجدها ووالدها وعمها ، وهم من كبار متصوفة ذلك العصر، وأحبت الأدب والشعر متأثرة بعمها شمس الدين وشقيقها بهاء الدين ، فأصبحت من شعراء عصرها المتألقين ، وصنفت المتون ، المنثور منها والمنظوم ."[59]

زواجها :

تزوجت عائشة الباعونية من ابن نقيب الأشراف في دمشق الشريف أحمد بن محمد بن أبي بكر ابن علي بن إبراهيم. الذى ينتهي نسبه للحسين بن علي بن أبي طالب نحو عام (٨٩٦هـ – ١٤٩٠م)، ورزقت منه بمولود ذكر اسمه عبد الوهاب، وبمولودة أنثى اسمها بركة .

[59] –1عائشة الباعونية الدمشقية أشهر أعلام دمشق أواخر عهد المماليك . فارس أحمد علاوي .ط دار معد للطباعة والنشر والتوزيع . دمشق سوريا ١٩٩٤م صـ .30

مؤلفاتها :

لقد ألفت عائشة الباعونية العديد من المؤلفات والتصانيف المختلفة شعرا ونثرا، ولكن أكثرها لم يصل إلينا، فمنها ما سرق في حياتها، ومنها ما ضاع بفعل عوادي الزمن، والذى وصل إلينا من إبداعها الأدبي ثمانية كتب. ومن مؤلفاتها (الفتح المبين في مدح الأمين– مولد النبي – القول الصحيح في تخميس بردة المديح – فتوح الضراعة في الصلاة على صاحب الشفاعة– فيض الفضل وجمع الشمل، وهو ديوان شعرها – المورد الأهنا في المولد الأسنى – در الغائص في بحر المعجزات والخصائص – القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع) وغيرها من المؤلفات المفقودة والتى فقدت ولم يصل إلينا منها سوى أسمائها المتناثرة في بعض الكتب . غير أن الذى وصل إلينا من شعرها يوضح مدى غزارة وعمق موهبة تلك الشاعرة ومدى قدرتها على الإبداع والإنتاج بغزارة ، فما بالنا بما ضاع من ذلك النتاج !

مكانتها وشعرها :

لقد كانت الباعونية شاعرة غزيرة الإنتاج الأدبي، تكتب الشعر على حروف روي متعددة ، لا تستعصي عليها قافية، ولا يعجزها وزن من الأوزان، فقد " كانت شاعرة مطبوعة، فاضلة أديبة، لبيبة عاقلة، وكان على وجهها من الجمال لمحة جمّلها الأدب، وحلتها بلاغة العرب، فجعلتها بغية ومنية للراغبين، والذى أجمع عليه العارفون أن عائشة هذه بين المولدين تزيد عن الخنساء بين الجاهليين ."[60] فلقد ألفت عائشة كمّا كبيرا من القصائد الشعرية ، والتى كان معظمها في مدح النبي (ص) ، وقدر منها كبير في حب

[60] –الدر المنثور في طبقات ربات الخدور . زينب العاملي . ط المطبعة الأميرية الكبرى ببولاق ١٣١٢هت جـ ٢ صـ .65.

الله وقربه ووصله لها، وما تبقى من قصائدها نذر قليل مدحت فيه أعيان وأدباء عصرها ، أو أجابت فيه عن مسائل فقهية ، وقد كان شعرها في مجمله يتسم برشاقة الأسلوب وسهولة الألفاظ ، ولا غموض فيه ولا تعقيد . و" لم يكن في زمانها من يضارعها من حرائر النساء أدبا وخلقا وعلما وفصاحة وحلما ، وفهما للمعاني الدقيقة العميقة الممستنبطة من آيات القرآن الكريم ، وقد كان لها باع طويل في فقه المذاهب الأربعة، وكذا السيرة النبوية."[61]

والحقيقة التى لا تنكر أن عائشة الباعونية شاعرة امتلكت آليات الشاعر العربي المجيد، وتميزت بغزارة الإنتاج الأدبي شعرا ونثرا، وقد جاء شعرها في مجمله رصينا بأسلوب سهل محبب للقلوب، أكثرت فيه من ألوان البديع نسجا على منوال عصرها الذى اشتهر بذلك، غير أن بعضا من قصائدها قد خلطتها ببعض الألفاظ العامية، وعلى الرغم أيضا من كتابتها على كل بحور الشعر أجمع، إلا أنها خلطت بعض الأوزان ببعضها في قصائد لها، خاصة تلك القصائد التى تقولها في حالة الوجد أو الحضرة الصوفية ، كما أنها قد جارت بعض الشيء على الفعل المضارع في جمل شعرها، فجزمت ما حقه الرفع لمراعاة الوزن ، فالذى يفر ديوان شعرها " فيض الفضل وجمع الشمل " والذى حققه أسعد عرار – وهو ما يعتمد عليه البحث هنا – يجد مثل هذه المواطن في غير موضع من قصائدها ، وسوف نتعرض لبعض منها في شواهد البحث .

ديوانها فيض الفضل وجمع الشمل :

[61] –عائشة الباعونية شاعرة الشام وفاضلة الزمان . محمد محمود كالو، ط دار المجد للنشر، صنعاء ٢٠٢٠م صـ 2

لقد ألفت عائشة الباعونية العديد من القصائد في المديح النبوي وفي العشق الإلهي، والعديد من القصائد الصوفية في فضل مشايخها وفضلاء أسرتها وعلماء عصرها، وقد ضاع العديد من تلك القصائد والكتابات الباعونية ، وقد وصل بعض منها إلينا مخطوطا بخط يد عائشة الباعونية ذاتها، ومن بين تلك المخطوطات ديوانها الذى عنونته بنفسها " فيض الفضل وجمع الشمل " ، وقد قام بتحقيقه الأستاذ مهدي أسعد عرار تحقيقا متميزا، اعتنى فيه بشعر عائشة الباعونية اعتناء علميا جيدا، كما أن حسن الربابعة قد حقق الديوان ذاته بعد تحقيق عرار بسنوات، غير أن تحقيق الربابعة لم يكن بنفس الدقة والمنهجية التى اتبعها عرار، ويعتمد البحث هنا على تحقيق عرار لدقته في التحقيق .

وقد ضم ديوان فيض الفضل وجمع الشمل كمًّا ضخمًا من القصائد الباعونية جاء أغلبها في مديح النبي والحب الإلهي، فقد قالت في خطبة الديوان المخطوط " فهذا كتاب معانيه زبد، ومداده مدد، سماه التوفيق "فيض الفضل وجمع الشمل "يشمل المنظوم والمفتوح به في المناجاة الإلهية والمعاني اللدنية، والأحوال الوهبية، والمعاناة الذوقية والشؤون الشوقية والمذاهب العشقية ، تعليلا لمن أحرقه الشوق، وجذبه التوق بالطوق، وجفاه الحبيب وأمرضه الطبيب، وكثر فيه القيل والقال، إلى أن حظي بالوصال ، وزال الانفصال." [62] وواضح من خلال حديثها منهجها في تأليف ديوانها هذا، فقد خصصت ديوانها لوصف حال وجدها وشوقها وعشقها الإلهي، ووصف حالها في المناجاة والمعاناة ولوعة الشوق على نهج ومنوال صوفي أصيل، وقد ذكرت الباعونية أن ديوانها هذا محمل بالمعاني اللدينة والأحوال الوهبية على نحو لا يفهمه من أهل الصوفية إلا خاصة الخاصة، والحق يقال أن الديوان مليء بتلك المصطلحات الصوفية التى توضح مدى

[62] –ديوان فيض الفضل وجمع الشمل لعائشة الباعونية . تحقيق مهدي أسعد عرار ط دار الكتب العلمية بيروت ٢٠١٠م صـ .33

تمكن الباعونية واستغراقها في مذهب التصوف ، " فصار ديوانها مستودعا أمينا للمصطلح الصوفي خاصة ، والفكر الذي يصدرون عنه عامة ، فأتت على " الحال" و" البسط"[63].

تأثرها بأعلام التصوف :

إن من يفر ما جاء في ديوان عائشة الباعونية من قصائد، ومقطوعات، وموشحات، وتخميسات ، وشعر عامي ملحون، يستشعر مدى تأثر عائشة بمن سبقها من شعراء الصوفية أمثال رابعة العدوية، والحلاج، وابن الفارض، والسهروردي، وابن زريق البغدادي، وغيرهم من شعراء الصوفية ، فنسجت على منوالهم وتأثرت بأقوالهم وأشعارهم .[64]

أما الحلاج فقد خمست له مقطّعة ، ونسجت على منوال قصيدته التى يقول فيها :(المجتث)

عَجِبْتُ مِنْكَ وَمِنِّي يَا مُنْيَةَ المُتَمَنِّي

وَأَدْنَيْتَنِي مِنْكَ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنْكَ أَنِّي

وَغِبْتُ فِي الجَدِّ حَتَّى أَفْنَيْتَنِي بِكَ عَنِّي

حيث قالت عائشة : (المجتث)

أَخَذْتَنِي لَكَ مِنِّي فَغِبْتُ عِنْدَكَ عَنِّي

وَرُحْتُ مِنِّي رَوَاحًا لِظِلِّ كَوْنِيَ مَفْنِي

---

[63] –السابق صـ 41

[64] –ديوان فيض الفضل وجمع الشمل لعائشة الباعونية . تحقيق مهدي أسعد عرار صـ ،39 40.

وَأَشْرَقَتْ شَمْسُ حَقٍ يُجْلَى بِمُطْلَقِ حُسْنِ

جَمَالُهُ مُذْ تَجَلَّى بِاللُّطْفِ مِنِّي أَخَذْنِي

وقد تأثرت بابن الفارض في تائيته التي يقول فيها : (الطويل)

سَقَتْنِي حُمَيَّا الحُبِّ رَاحَةُ مُقْلَتِي وَكَأْسِي مَحَيّا مِنْ عَنِ الحُسْنِ جَلَّتِ

فَأَوْهَمْتُ صَحْبِي أَنَّ شُرْبَ شَرَابِهِمْ بِهِ سِرُّ سِرِّي فِي انْتِشَائِي بِنَظْرَةِ

حيث قالت عائشة الباعونية : (الطويل)

سَقَانِي حُمَيّا الحُبِّ مِنْ قَبْلِ نَشْأَتِي وَمِنْ قَبْلِ وجْدَانِي طَرِبْتُ بِنَشْوَتِي

وَأَشْهَدَنِي لُطْفَ الجَمَالِ كَمَا يَشَا بِمَا شَاءَ لَمَّا شَاءَ أَخْذَ شَهَادَتِي

ومن أمثال تأثرها بالسهرودي مجاراتها له في قصيدته التي يقول فيها : (الكامل)

أَبَدًا تَحِنُّ إِلَيْكُمُ الأَرْوَاحُ وَوِصَالُكُمْ رَيْحَانُهَا وَالرَّاحُ

وَقُلُوبُ أَهْلِ وِدَادِكُمْ تَشْتَاقُكُمْ وَإِلَى لَذِيْذِ لِقَائِكُمْ تَرْتَاحُ

حيث تقول عائشة: (الكامل)

هَبَّتْ لَنَا مِنْ لُطْفِكَ الأَرْوَاحُ فَتَبَاشَرَتْ بِوِصَالِكَ الأَرْوَاحُ

وَجَلا جَمَالَكَ لِلقُلُوبِ مُدَامَةٌ فِيْهَا لِلَيْلِ حِجَابِهَا إِصْبَاحُ

وغير ذلك الكثير والكثير من أشعار عائشة التى تأثرت فيها بشعراء الصوفية مبنى ومعنى، فنسجت على منوالهم وزنا وقافية ، ودارت قصائدها في فلك ما دارت معاني قصائدهم ، ونهلت من نفس مشاربهم، وراحت تحلق عاليا معهم في آفاق الحب الإلهي، لتنتج لنا قصائد حب مشحونة بشوق ولهفة وتطلع لوصال وكشف رباني هو غاية قلبها

المشعوف بوصال الله والنظر إلى وجهه الكريم على نحو ما سنفصله في منهاج عشقها الإلهي .

العشق الإلهي في شعر عائشة الباعونية:

إن الذي يتأمل حياة عائشة الباعونية يجد أنها قد نشأت في محيط أسري مشحون بالعلم والتصوف، يمتزج فيه الفقه بالحب والقرب من الله ، تمتليء حياتها بمعاني الصدق والإيمان، فيعج قلبها بزحام من الإيمان والعلم والتصوف والقرب؛ فينتج لنا شعرا لم يخرج من اللسان ، بل خرج من القلب محمّلا بكل ما سبق ذكره. وقد كان لمفهوم العشق عند عائشة الباعونية معانٍ سامية تعادل مفهوم سابقيها من المتصوفة، وتربو على مفهوم معاصريها له. وقد تميزت عائشة في طرق عرضها لعشقها الإلهي، فديوانها " فيض الفضل وجمع الشمل "يحمل كمًّا هائلا من الأبيات التي تتحدث عن العشق الإلهي ، والتي تصف فيها تقلب حالها في العشق ما بين صدٍّ ووصل وقرب وشوق إلى مشاهدة الله على نحو ما سنذكره.

- **مفهوم العشق في شعر عائشة الباعونية :**

لقد تناولت عائشة العشق الإلهي لذات الله بمنظورها الخاص، تبدأ فيه من باب التوحيد والإفراد لله بكامل صفاته وجلاله ، فهي لا ترى في الوجود سوى محبوبها الفرد الصمد، الذى تتجلى أنواره لعشاقه فتتكشف عنهم أستار الأوهام، فتطيب حياتهم بالتفاني في حبه في جنة عشق ليس فيها إلا الله .حيث تقول : (البسيط)[65]

مَا فِي الوُجُودِ سِوَى مَنْ لَيْسَ إِلّا هُو حَقُّ الحَقِيقَةِ مَولَانَا هُوَ اللهُ

[65] –ديوان فيض الفضل وجمع الشمل لعائشة الباعونية . تحقيق أسعد عرار صـ .432

لَوْلَا سُتُورٌ مِنْ الأَوْهَامِ كُنْتَ تَرَى حَيْثُ اتْجَهْتَ سَنَا أَنْوَارِ مَعْنَاهُ

فَاكْشِفْ غِطَاكَ بِمَحْوٍ فِى نِهَايَتِهِ يَأْتِيكَ إِثْبَاتُ تَحْقِيْقٍ لِرُؤْيَاهُ

فَرْدٌ توَحَّدَ ذَاتًا وَاعْتَلَى صِفَةً وَجَلَّ فِعْلًا وَعَزَّتْ مِنْهُ أَسْمَاهُ

إِذَا تَجَلَّى مُحَيَّاهُ وَطَافَ عَلَى نِدْمَانِهِ بِكُؤُوسٍ مِنْ حُمَيَّاهُ

طَابُوا وَغَابُوا عَنِ الأَكْوَانِ وَانْتَعَشُوا بَعْدَ التَّفَانِي وَأَحْيَاهُمْ مُحَيّاهُ

بِهِ حَيَاةُ بَقَاءٍ فِى جِنَانٍ وَفَا لَا يَعْرِفُونَ بِهَا وَاللهِ إِلَّا هُو

هُوَ الحَبِيْبُ الّذِى فِى شَمْسِ وِحْدَتِهِ مَحَتْ ظِلَالَ السِّوَى أَنْوَارُ مَجْلَاهُ

وترى عائشة أن الحب لا ينبت إلا بماء القرب ، وأن الله وحده هو القادر على إنباته وإروائه بقربه، فالله وحده هو غاية مقصودها ، فقلبها معلق به، باقٍ على عهد تعلقه به منذ شهد بذلك في الذر قبل الخلق، وهو لا يحيد عنه ولا يتحول . حيث تقول : (مجزوء الرجز)[66]

يَا زَارِعَ الحُبِّ بِرَوضَةِ القَلْبِ

ذَا الزَّرْعُ مَا يُنْبِتْ إلا بِمَاءِ القَرْبِ

انْظُرْ إِلَيهْ رَبِّي وَارْوِهِ بِالشِّرْبِ

وَاكْشِفْ غِشَا الحُجْبِ والسَّتْرِ مِنْ عَجْبِ

يَا مُنْتَهَى المَقْصُودْ يَا غَايَةَ الآمَالْ

يَا ذَا العُلا وَالجُودْ يَا وَاسِعَ الإِفْضَالْ

[66] –السابق صـ 196

عَمِّرْهُ يَا مَعْبُودِي فَإِنّـهُ مَـا حَـالْ

عَنْ عَهْدِكُمْ فِي الذّرِّ فِي سَائِرِ الأَحْوَالْ

وتجد عائشة يتملكها العشق الذي سارت فيه على نهج أهل الوفا ولم تتحول عنه ، فالله حبيبها على كل حال . حيث تقول : (المتقارب)[67]

تَمَلَّكْتَ رِقِّي بِلُطْفِ الجَمَالْ فَمَا صَدَّ قَلْبِي وَلَا عَنْكَ مَالْ

وَلَا حَالَ عَنْ حَالِ أَهْلِ الوَفَا وَلَا خَطَرَ الصَّبْرُ مِنْهُ بِبَالْ

يَرِقُّ لِرِقِّهِ حَالُ العَذُولْ وَسَلْسَالُ دَمْعِي عَلَى الخَدِّ سَالْ

وَأَصْبَحْتُ فِيكَ كَمَا قَدْ عَلِمْتَ وَأَنْتَ حَبِيْبِي عَلَى كُلِّ حَالْ

ومن مثله أيضا قولها بامتلاك الله لها، فهي عاشقة له، أسيرة حبه، تتحمل في حبه ما لا تتحمله الجبال الشامخات، ودمعها يجرى دلالة على حبها وشوقها إلى الله، حيث تقول : (المتقارب)[68]

تَمَلَّكْتَنِي بِجَمَالِ الكَمَالْ فَمَا صَدَّ قَلْبِي وَلَا عَنْكَ مَالْ

فَهَا أَنَا طَوعُكَ فِي كُلِّ أَمْرٍ وَهَا أَنَا رِقُّكَ فِي كُلِّ حَالْ

فَسِيَانَ مِنْكَ الجَفَا وَالوَفَا وَمُرُّالصُّدُودِ وَحُلْوُ الوِصَالْ

وَحَمَّلْتَنِي فِيْكَ مَا لَمْ تُطِقْ تَحَمُّلَهُ الشَّامِخَاتُ الطُّوَالْ

وَأَجْرَيْتَ دَمْعِيَ مَجْرَى السِّيُولِ وَلَيْسَ فُؤَادِي بِمَا سَالَ سَالْ

---

[67] –ديوان فيض الفضل وجمع الشمل لعائشة الباعونية . تحقيق أسعد عرار صـ 449

[68] –السابق صـ .431

- **دعوة الله لقلبها :**

ترى عائشة في المقام الأول أن الحب اصطفاء من الله لعبده، وأن طريق الحب طريق استقامة لا يسير فيها سوى من هداه الله واصطفاه ليذوق سلاف المحبة والقرب، ولا يبلغ تلك المنزلة إلا محب يبذل جهده بالذكر والتقرب بالطاعات، حيث تقول : (الكامل)[69]

رُوحُ العِنَايَةِ لَا يَشُمُّ نَسِيْمَهَا إِلَّا فَتَى سَبَقَ القَضَاءُ بِسَعْدِهِ

وَطَرِيْقُ أَهْلِ الاسْتِقَامَةِ لَمْ يَسِرْ فَيْهَا سِوَى عَبْدٍ هَدَاهُ لِرُشْدِهِ

وَسُلَافُ أَهْلِ الحُبِّ مَا إِنْ ذَاقَهَا إِلّا صَفِيٌّ اصْطَفَاهُ لِوِدِّهِ

وَمَقَامُ أَهْلِ القُرْبِ لَمْ يَحْلِلْ بِهِ إِلّا مُحِبٌّ فِيهِ بَاذِلُ جَهْدِهِ

وَبِسَاطُ أَهْلِ الأُنْسِ لَيْسَ يَطَا هُ إِلّا اللاهِجُونَ بِذِكْرِهِ وَبِحَمْدِهِ

وَكَذَا التَّجَلِّي لَا يُشَاهِدُ نُورَهُ إِلّا مُرَادٌ آمِنٌ مِنْ رَدِّهِ

ومنه أيضا قالت تصف أهل المحبة ومقامهم عند الله وبين الناس : (البسيط)[70]

وَخَصَّ صُفْوَتَهُ فِى حِيْنِ لَا أَثَرٌ لِرَسْمِ شَيءٍ لِمَا سَوَّى وَأَنْشَاهُ

فَدَلَّهُمْ كَرَمًا مِنْهُ عَلَيْهِ بِهِ فَمَا اسْتَدَلُّوا بِشَيءٍ غَيْرِ إِيَّاهُ

هُمُ الذِينَ اصْطَفَاهُمْ رَبُّهُمْ أَزَلًا لِقُرْبِهِ وَحَبَاهُمْ خَيْرَ نُعْمَاهُ

هُمُ الكِرَامُ هُمُ أَهْلُ الخُصُوصِ هُمُ فِى حَضَرَةِ القُرْبِ وَالزُّلْفَى نَدَامَاهُ

---

[69] –نفسه صـ .138

[70] –ديوان فيض الفضل وجمع الشمل لعائشة الباعونية . تحقيق أسعد عرار صـ .433

هُمُ الذَّخَائِرُ وَالقُطْبُ الَّذِى فَهِمُوا عَنْهُ جَمِيعَ الّذِى فِي السِّرِ أَوحَاهُ

هُمُ الّذِينَ بِأَحْكَامِ العُبُودَةِ قَدْ قَامُوا فَلَمْ يَشْهَدُوا فِي الكَونِ إِلَّاهُ

هُمُ المَوَالِي هُمُ السَّادَهْ الّذِينَ بِهِ سَادُوا وَعَزُّوا وَأَضْحَى مِنْهُمُ جَاهُ

هُمُ المُلُوكُ الّذِى فِى الكَونِ صَرَّفَهُمْ بِأَمْرِهِ فَرَعَايَاهُمْ بَرَايَاهُ

هُمُ المُرَادُونَ لِلزُلْفَى وَلَا أَثَرٌ وَلَا وُجُودٌ وَمَخْطُوبُونَ مَرْآهُ

- نشأتها على العشق :

لقد نشأت عائشة على محبة الله منذ الصغر، فترعرعت على حفظ القرآن والحديث النبوي، ونهلت من معين أسرتها في المحبة والتصوف، فقد نشأت على دين الصبابة، وعلى هدي المحبين، فشبت وجمر الحب يستعر بقلبها ، ولا شفاء لها سوى القرب من الله، حيث تقول : (الطويل)[71]

قالت عن دين الصبابة : الطويل صـ ٣٣٨

مُحِبٌ عَلَى دِينِ الصَّبَابَةِ قَدْ نَشَا وَشَبَّ وَجَمْرُ الشَّوقِ فِي قَلْبِهِ شَبَّا

يُنَاجِي حَبِيْبَ القَلْبِ بِالقَلْبِ سَيِّدِي أَنَا ذَلِكَ القَلْبُ الَّذِى لَمْ يَزَلْ صَبَّا

عَلِيْلُ اشْتِيَاقٍ مَالَهُ غَيْرُ وَصْلِكُمْ طَبِيْبًا يُطِبُّ الدَّاءَ إِنْ طَلَبَ الطِبَّا

ومنه أيضا قولها في مقام نشأتها على الحب والعرفان : (الطويل)[72]

سَقَانِي حُمَيّا الحُبِّ مِنْ قَبْلِ نَشْأَتِي وَمِنْ قَبْلِ وُجْدَانِي طَرِبْتُ بِنَشْوَتِي

[71] –السابق صـ 338

[72] ديوان فيض الفضل وجمع الشمل لعائشة الباعونية . تحقيق أسعد عرار صـ .237،238

وَأَشْهَدَنِي لُطْفَ الجَمَالِ كَمَا يَشَا بِمَا شَاءَ لَمَّا شَاءَ أَخْذَ شَهَادَتِي

وَأَوْدَعَ سِرِّي سِرَّ سِرٍّ تَجَلَّى عَنْ إِحَاطَتِهِ بِالفَهْمِ أَو بِالبَصِيْرَةِ

فَجَلَّ عُلُوًّا عَنْ إِحَاطَةِ حَادِثٍ وَعَزَّ جَلَالًا عَنْ فُهُومِ الخَلِيْقَةِ

وَأَسْمَعَنِي مِنْهُ خِطَابًا يَجِلُّ عَنْ تَآلُفِ أَنْوَاعِ الحُرُوفِ بِنَغْمَةِ

خِطَابًا إِلَيْهِ مَا بَرِحْتُ مَشُوقَةً أُعَلِلُ قَلْبِي بِالسَّمَاعِ وَمُهْجَتِي

وَصَيَّرَنِي فِي جَامِعِ الحُبِّ وَالهَوَى أُحَيْعِلُ لِلْعُشَاقِ أَهْلِ المَحَبَةِ

فَيَا فُقَهَاءَ الحُبِّ لِي فِيهِ مَذْهَبٌ وَمِنْ بَعْضِهِ مَحْوُ الأَنَا فِي الهُوِيَّةِ

وَتَرْكُ السِّوَى وَالغَيْرِ وَالجَاهِ وَالهَوَى لِأَجْلِ رِضَى المَحْبُوبِ لَيْسَ لِعِلَّةِ

يَقُولُونَ: فِي ذِكْرِ الحَبِيْبِ تَنَفُّسٌ وَقَدْ صَدَقُوا،وَلَكِنْ يُثِيْرُ صَبَابَتِي

فَحَالِيَ فِي نُطْقِي الهُيَامُ بِذِكْرِهِ وَحَالِيَ فِي صَمْتِي الذُّهُولُ بِحِيْرَةِ

دَعَانِي هَوَاهُ فَاسْتَجَبْتُ بِجُمْلَتِي إِجَابَةَ مَنْ أُفْنِي بِبَاقِي الهُوِيَّةِ

- **دلائل العشق من منظور عائشة الباعونية :**

يدعي الكثيرون محبة الله والشوق إليه ، لكن عائشة ترى أن هناك دلائل لهذا الحب وعلامات يجب أن تتوفر في المحب لكي يكون من جملة العشاق ، ويجب أن يقدم ذلك الدليل للعلن كي يحكم بعشقه لله ، حيث تقول أن الحب آيته النحول :

(المواليا)[73] عامية

[73] –**ديوان فيض الفضل وجمع الشمل لعائشة الباعونية . تحقيق أسعد عرار صـ ٢٦٥، وجل هذه المقطوعة عامية .**

مَنْ يَدَّعِي حُبَ مَنْ أَهْوَى وَلَا يَهْزَلْ وَلَا يُثِيرُو غَرَامُو ذِكْرهُ المُنْزَلْ

وَلا مِنَ الوَجْدِ قِسْمُو وَافِرٌ مُجْزَلْ فَاحْكُمْ بِأَنُو عَنِ العُشَّاقِ فِي مَعْزَلْ

وقالت منه أيضا : (المواليا)[74]

مَنْ يَدَّعِي حُبَّ مَحْبُوبِي وَلَا يَضْنَي وَلَا يُعَانِي مَعَانِيهِ وَلَا يَعْنَى

وَلَا يَذُوبُ وُلَا يُمْحَى وَلَا يَفْنَى فَإِنَّ دَعْوَاهُ لَفْظٌ مَالَهُ مَعْنَى

ومنه أيضا قولها الذى تطلب فيه ممن يدعي الحب أن يقدم دليلا على عشقه : (المواليا)[75]

يَا مَنْ يُعَانِي مَعَانِي العِشْقَ وَالأَشْوَاقْ وَيَدَّعِي أَنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ العُشَّاقْ

إِنْ كُنْتَ صَادِقْ فَقَدمْ يَا أَخِي مِصْدَاقْ مَا يَدَّعِيهِ التَّقَانِي فِي الجَمَالِ البَاقْ

وقالت تخاطب من يدعي حب الإله لتخبره أن دعوى المحبة ليست بالأمر الهين ، فلها علامات ودلائل لابد من تقديمها لتصح دعواه ، حيث تقول :(الكامل)[76]

يَا مُدَّعِي حُبَّ الإِلَهِ وَمَا دَرَى أَنَّ المُحِبَّ لّهُ دَلَائِلُ تَشْهَدُ

لَا تَحْسَبَنْ دَعْوَى المَحَبَّةِ هَيِّنَا وَبِدُونِ ذَلِكَ قَدْ يَذُوبُ الجَلْمَدُ

دَمْعٌ يُتَرْجِمُ عَنْ هَوَاهُ وَمَنْطِقٌ لِجَمِيْعِ مَا تُبْدِي المَدَامِعُ يَجْحَدُ

---

[74] –السابق صـ 266

[75] –نفسه صـ ٢٨٣.، والمقطوعة فيها مزيج بين العامية والفصيحة .

[76] –نفسه صـ 91

وَنُحُولُ جِسْمٍ كَادَ يَخْفَى رَسْمُهُ لَوْلَا تَرَدُّدُ زَفْرَةٍ تَتَصَعَّدُ

وَسُهَادُ طَرْفٍ بِالنُّجُومِ مُوَكَّلٌ وَجَوًى يَزِيْدُ وَلَوْعَةٌ تَتَجَدَّدُ

وَتَذَلُّلٌ فِي بَابِهِ وَتَلَذُّذٌ بِخِطَابِهِ وَتَمَلُّقٌ وَتَوَدُّدُ

وَتَنَعُّمٌ بِعَذَابِهِ وَتَشَرُّفٌ بِعِتَابِهِ وَتَضَرُّعٌ وَتَهَجُّدُ

وَفَنَاؤُهُ عَنْ نَفْسِهِ، وَبَقَاؤُهُ بِإِلَهِهِ عَنْ غَيْرِهِ يَتَجَرَّدُ

رَاضٍ بِمَا يَأْتِيْهِ مِنْ مَحْبُوبِهِ إِنْ كَانَ يَدْنُو مِنْهُ أَو هُوَ مُبْعَدُ

- تدرجها في مراتب العشق :

لم تصل عائشة الباعونية إلى أعلى درجات الحب مرة واحدة، أو دون جهد منها ومكابدة وعناء، ولم تتوقف عند منزلة الاصطفاء لها من الله ، فراحت تجتهد وتسلك سبيل المحبين في التقرب

إلى الله، وتطلب مرضاته بالسهر والعبادة والبكاء شوقا إليه، حتى استعرت نيران الحب بين ضلوعها فأضاءت لها نور الحقيقة بقربها من الله، حيث قالت تصف رحلتها في محبة الله، وكيف وصلت لهذا المقام فى العشق الإلهي : (المنسرح)[77]

حِبِّي دَعَانِي بِجُودِهِ لِلحَانْ وَطَافَ فَضْلًا بِكَأْسِهِ المَلآنْ

وَخَصَّ سِرِّي بِصِرْفِهِ الصَّافِي وَلَاحَ جَهْرًا بِحُسْنِهِ الفَتَّانْ

وَمُذْ تَجَلَّى فَنَيْتُ عَنْ كَونِي وَعَنْ وُجُودِي وَسَائِرِ الأَكْوَانْ

[77] –ديوان فيض الفضل وجمع الشمل لعائشة الباعونية . تحقيق أسعد عرار صـ .442

وَفِى فَنَايَ وَفِى البَقَاءِ لِوَصْلِي فَصِرْتُ عَيْنًا تُشَاهِدُ الرَّحْمَنْ

حِبِّي نَدِيمِي وَوَصْلُهُ حَظِّي وَالبَسْطُ حَالِي وَالحَانُ لِي مَيْدَانْ

وَالأُنْسُ نَقْلِي وَمُطْرِبِي سُكْرِي وَلُطْفُ نَجْوَى الحَبِيْبِ لِي رَيْحَانْ

إِلَيهِ يَا طَالِبِيهِ حُجُّوا وَاسْعَوْا كَسَعْيِي وَلازِمُوا الطَّيَرَانْ

وَجَرِّدُوا العَزْمَ وَالزَمُوا التَّفَانِي وَكَمِّلُوا المَحْوَ تُصْبِحُوا نِدْمَانْ

فَكَمْ لَيَالٍ سَهِرتُهَا وَجْدًا وَلِي زَفِيْرٌ تُثِيرُهُ الأَشْجَانْ

وَسَيْلُ دَمْعِي عَلَى الخُدُودِ يَجْرِى وَمِنْ وُلُوعِي فِى أَضْلُعِي نِيرَانْ

وقالت أيضا تصف رحلتها في الحب، وكيف تفانت في محبوبها، وكيف أصبح قلبها باقيا ببقاء الله، وأصبح شاخصًا لا يرى إلا محبوبها، ولا يأتمر إلا بأمره، حيث تقول : (الوافر)[78]

تَحَقَّقَ بِالوَفَا قَلْبِي فَأَخْلَصْ لِحِبِّي فِي الهَوَى لَمَّا تَخَصَّصْ

دَعَاهُ فَاسْتَجَابَ إِلَى التَّفَانِي فَنَاءً مِنْ سِوَاهُ بِهِ تَخَلَّصْ

حَرِيصًا فِى الهَوَى أَبَدًا وَلَكِنْ عَلَى فَنَيَاتِهِ فِى الحُبِّ أَحْرَصْ

تَسَرْبَلَ بِالفَنَا عَنْهُ إِلَى أَنْ غَدَا بِبَقَاءِ بَاقِيهِ مُقَمَّصْ

جَلَاهُ بِالتَّجَلِّى فَهْوَ عَيْنٌ لِغَيْرِ جَمَالِهِ مَا قَطُّ تَشْخَصْ

[78] –السابق صـ.349

وَأَسْكَرَهُ بِكَاسَاتِ التَّوَالِي وَاحْضَرَهُ وَخَاطَبَهُ وَخَصَّصْ

وَصَرَّفَهُ بِهِ فِى كُلِّ أَمْرٍ تَصَرُّفَ مَنْ لَهُ فِى الحُبِّ أَخْلَصْ

ومنه أيضا قولها، تخبر أن الله رباها على الحب حتى استقامت طباعها عليه، وأصبح لازما من لوازم شخصيتها، حيث تقول : (الوافر) [79]

وَرَبَّانِي بِهِ حَتَّى اسْتَقَامَتْ طِبَاعِي فِي رِيَاضَاتِ التّرَابِ

واصلت عائشة رحلتها في العشق الإلهي، تجتهد لتصل إلى أعلى الدرجات، حتى اعتادت ما تفعل، وحلا لها ذلك الشوق، وراقها سكب المدامع في محبة الله، حتى بلغت منزلة التنعم بكل ما يقضيه عليها العشق، ملتزمة بشرعه وشرائعه، حيث تقول: (الكامل)[80]

عَلِقَ الفُؤَادُ بِمَنْ فَنَى بِجَمَالِهِ عَنْ ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَفِعَالِهِ

فَرْدٌ تَفَرَّدَ فِيهِ قَلْبِي بِالهَوَى وَعَصَى لَوَاحِيَهُ عَلَى بَلْبَالِهِ

وَحَلا لَهُ سَكْبُ المَدَامِعُ فَهْوَ لَا يَسْلُو بِمَا قَدْ سَالَ مِنْ سَلْسَالِهِ

أَبَدًا يُوَاصِلُ وَجْدَهُ بِغَرَامِهِ مُتَبَرِّئًا مِنْ صَبْرِهِ وَمَلَالِهِ

مُتَنَعِّمًا بِجَمِيعِ مَا يَقْضِي الهَوَى فِي شَرْعِ صَبْوَتِهِ عَلَى أَحْوَالِهِ

[79] –ديوان فيض الفضل وجمع الشمل لعائشة الباعونية . تحقيق أسعد عرار صـ .339

[80] –السابق صـ .344

ومنه أيضا وقد وصفت لنا كيف خاضت غمار الحب وركبت أمواج بحره المتلاطم ، حيث تقول : (الطويل)[81]

وَلَمَّا بَدَا بَحْرُ الهَوَى خِلْتُ لُجَّةً رَقَارِقُ مَاءٍ خَوضُهَا لَيْسَ يَعْسِرُ

فَجَرَّدْتُ عَزْمِيَ، وَانْثَنَيْتُ لِنَحْوِهِ وَقُلْتُ عَلَى اسْمِ اللهِ وَاللهُ أَكْبَرُ

وَخُضْتُ مَبَادِيَهُ اللِطَافَ وَطَابَ لِي مَعِيْنُ مَعَانِيهِ التِى هِيَ جَوهَرُ

وَهَبَّتْ مِنَ المَوْلَى عَلَيَّ نُسَيْمَةٌ يَفُوقُ شَذَاهَا المِسْكَ بَلْ هِيَ أَعْطَرُ

فَمَازَالَ يَشْتَمُّ الفُؤَادُ أَرِيجَهَا إِلَى أَنْ غَدَا نَشْوَانَ عَنْهَا يُخَبِّرُ

وَغَابَ عَنِ الأَشْيَا بِمَنْ شَاءَ كُلِّهَا وَقَامَتْ صِفَاتُ الحَقِّ فِيمَا يُعَبِّرُ

فَلَمْ يَصْحُ إِلَّا وَهْوَ فِي اللُّجِ غَارِقٌ وَمِنْ فَوقِهِ بَحْرُ المَحَبَّةِ يَزْخَرُ

- **غايتها في العشق الإلهي :**

لم تكن عائشة الباعونية تطلب في تحرقها في عشق الله وتقلبها في رمضاء الصد والبعد تارة والقرب تارة سوى رضا الله عنها، فالرضا غايتها الأولى التي سعت إليها، وما أن شعرت أنها بلغتها حتى تاقت نفسها إلى الوصل، ثم المنادمة، ثم المشاهدة، فعائشة تسعى منذ نعومة أظفارها إلى رضا الله والقرب منه، وفي سبيل ذلك أقسمت أنها لا تطمع في جنة، ولا تخشى حرق النار، وإنما غايتها الأسمى هي مشاهدة وجه الله الكريم . والطريف أن عائشة الباعونية على الرغم من شدة حبها لله والتعلق به، وأن ليس في قلبها سوى الله، إلا أنها لم تنقطع عن الدنيا وأحوالها، فنراها تطلب منصبا

[81] –نفسه صـ .143

لابنها " عبد الوهاب" وتسعى لكسب ذلك، بل وتسافر وترتحل لطلب ذلك، غير أن كل ذلك لم يؤثر على غايتها في الحب الإلهي ألا وهي الرضا .

فنجدها تعلن غايتها صراحة في قولها: (المواليا)[82]

رِضَاكَ عَنِّي هُوَ المَرْجُو وَالمَرْغُوبْ يَا مَنْ هُوَ القَصْدُ وَالمَأْمُولُ وَالمَرْغُوبْ

فَكَيفَ أصبِرْ وَصَبْرِي فِي الهَوَى مَغْلُوبْ وَبِكْ إِلَيْكَ جَمِيعِي لَمْ يَزَلْ مَجْذُوبْ

ومن أجل تحقيق مرادها هذا تبدأ رحلتها بالاعتراف بعيوبها التى تراها لا تعد ولا تحصى، وتطرح نفسها على بابه لعله يرضى، حيث تقول : (كامل)[83]

قَدْ جِئْتُ بَابَكَ سَيِّدِي بِكَ أَرْتَجِي مِنْكَ الرِّضَى وَمَعَايِبِي لا تُحْصَرُ

وتجدها تقف على بابه بين الأمل والرجاء في حالة قلق وتوتر شديدين ، حيث تصف حال إلحاحها على التأكد من رضى الله عليها، فتقول : (الكامل)[84]

لَو يَرْتَضِينِيَ أَنْ أَكُونَ مِنَ الخَدَمْ فَلَقَدْ تَفَضَّلَ بِالأَجَلِّ مِنَ النِّعَمْ

أَو كَانَ حَظِّي مِنْ عَطَايَاهُ الرِّضَى مِنْهُ عَلَيَّ فَبِالسَّعَادَةِ لِي قَسَمْ

وتبحث عن كل الوسائل والطرق التي تضمن لها هذا الرضا، فهي في غاية الشوق لدخول تلك

---

[82] – ديوان فيض الفضل وجمع الشمل لعائشة الباعونية . تحقيق أسعد عرار صـ .265

[83] –السابق صـ .77

[84] –نفسه صـ 127

الجنة – على حد تعبيرها – جنة فيها فواكه الفتح والعلم ، حيث تقول : (الطويل)[85]

فَمَنْ لِي بِأَنْ يَرْضَى وَيُرْشِدُنِي إِلَى سَبِيْلٍ لَنَا فِيْـهِ الـطَّرِيقُ قَـوِيمُ

وَيُدْخِلُنِي رَوضَ الرِّضَى وَيُذِيقُنِي فَـوَاكِـهَ فَـتْحٍ كُـلُّهُـنَّ عُـلُومُ

وتظل عائشة تلح في طلب الرضا، وتخبر معشوقها الأوحد أنها تحبه وتحب من أحب، وكل مرادها من معشوقها الرضا، فهو منهى المرغوب، حيث تقول : (المواليا)[86]

أَنْتَ الحَبِيْبُ وَمَنْ أَحْبَبْتَ لِي مَحْبُوبْ وَمِنْكَ أَنْتَ المُنَى وَالكُلُّ لَكْ مَجْذُوبْ

فَإِنْ رَضِيْتَ فَهَذَا مُنْتَهَى المَرْغُوبْ وَإِنْ وَصَلْتَ فَوَصْلُكْ غَايَةُ المَطْلُوبْ

وبعد طول وقوفها بباب معشوقها تجزم عائشة أن لو رضي محبوبها عليها فعلى الدنيا السلام، فهي زاهدة فيها، وزاهدة في جنات الخلد التي يطع في دخولها كل الخلق، حيث تقول : (الطويل)[87]

إِذَا رَضِيَ المَوْلَى عَلَيَّ بِفَضْلِهِ وَأُحْضَرَ قَلْبِي فِي مَقَامِ التَّقُرُّبِ

سَلامٌ عَلَى الدُّنْيَا وَكُلِّ نَعِيْمِهَا وَمَا فِي جِنَانِ الخُلْدِ مِنْ كُلِّ طَيِّبِ

لمَ لا ؟ فعائشة ترى أن العاشق يجب أن يكون متجرد القلب لمحبوبه عن سواه، فلا يخالط قلبه شيء سوى الله ، حيث قالت : (المواليا)[88]

---

[85] –ديوان فيض الفضل وجمع الشمل لعائشة الباعونية . تحقيق أسعد عرار صـ .137

[86] –السابق صـ .265

[87] –نفسه صـ .126

[88] –نفسه صـ .268

إِنَّمَا العَاشِقُ صَبٌّ قَدْ عَرِي وَتَجَرَّدْ عَنْ سِوَى مَحْبُوبِهِ

وَصْلُ مَنْ يَهْوَاهُ أَنْهَى قَصْدِهِ وَرِضَاهُ مُنْتَهَى مَطْلُوبِهِ

تؤكد عائشة على صدق عشقها وإصرارها على بلوغ غايتها ومرادها من العشق برضا الله ، حتى وإن كلفها ذلك الطريق حياتها، فهي ترضى بما يرضاه محبوبها لها طالما هي على دين المحبة ، فلن تأسف لفقد شيء بعده ، حتى وإن كانت جنات عدن ، حيث تقول : (الطويل)[89]

وَلَو كَانَ إِتْلَافِي وَمَوتِي بِغُصَّتِي وَلَو كَانَ ذَودِي عَنْ أَلَذِّ وُرُودِي

رَضِيْتُ بِمَا تَرْضَاهُ رَبِّ مَحَبَّةً أَحَاطَتْ بِكُلِّي بَعْدَ مَحْوِ حُدُودِي

إِذَا أَنْتَ رَاضٍ وَالمَحَبَّةُ مَذْهَبِي وَفِيْهَا رُكُوعِي دَائِمًا وَسُجُودِي

فَلا أَسَفٌ مِنْ بَعْدِ ذَاكَ عَلَى مُنَى وَلَو كَانَ يَا مَحْبُوبُ عَدْنَ خُلُودِي

وتجزم عائشة أن الممات في رضا الله وبمراده لها سيكون بلوغا لغايتها ومرادها، فهي لا تخشى الفناء؛ لأن نفسها تطيب بمراد الله لها، حيث تقول : (الوافر)[90]

وَإِنْ شِئْتَ المَمَاتَ إِلَهِي فَاسْدِلْ سُتُورَكَ وَافْنِنِي بِلَظَى لَهِيْبِي

وَإِنْ كَانَ المَمَاتُ رِضَاكَ عَنِّي فَيَا نَفْسِي بِمَوتِكِ فِيْهِ طِيْبِي

وَلَا أَخْشَى الفَنَاءَ وَأَنْتَ بَاقٍ بَقَاءً قَدْ تَعَالَى عَنْ ضَرِيْبِ

[89] –ديوان فيض الفضل وجمع الشمل لعائشة الباعونية . تحقيق أسعد عرار صـ .309

[90] –السابق صـ .174

- حالها وقت الهجر والصدّ:

ولما غرقت عائشة في بحر العشق الإلهي، وقد ذابت شوقا وحنينا، أضحى معشوقها غايتها الأسمى، فلا طاقة لها بالبعد عنه، ولا طاقة لها أن تستشعر – ولو للحظة– صده عنها، فقد أرهقها العشق، وتملك منها الروح، وأبلى الجسد، فلو صدّ معشوقها عنها أصيبت بالهم والعذاب ، وأصيب جسدها بالنحول، فقالت تصف حال حبها وهيامها بالله وقد اشتد بها الشوق والغرام :[91]

مَا بِي دَاءْ سِوَى الغَرَامْ وَإِنْ لَامْ جَاهِلْ أَقُلْ سَلَامْ لِمْ لَا وَاللهْ هُوَ المُرَادْ

قَلْبِي شَاكِي مِنَ الصُّدُودْ

وَافِي مَا خَانْ لِلعُهُودْ

فِيْكُمْ بِالرُّوحِ إِنْ يَجُودْ

يُعْذَرْ فِي ذَا وَلا يُلامْ وَإِنْ لامْ جَاهِلْ يُقَلْ سَلامْ لِمْ لا واللهْ هُوَ المُرادْ

ومما يلحظ على بعض قصائد عائشة في الحب الإلهي تلك النغمة التى تردد بها الأبيات، وتلك الطريقة التى تنشد بها، وكأنها قيلت في حضرة سماع صوفية غايتها الإنشاد . فالقطعة السابقة يغلب عليها أن تكون من موسيقى مجزوء المتدارك، والمعول على هذا طريقة نطقها ، وفيها تمزج العامية بالفصيح .

[91] –نفسه صـ .121

وعائشة حينما تستشعر الصد والهجر يتحول صبحها إلى ليل مظلم، ويعلو نواحها، فلا حياة لها وقد صد عنها معشوقها . فقالت تصف حال قلبها حال الهجر : (المجتث)[92]

وَإِنْ هَجَرْتَ فَصُبْحِي لَيْلٌ، وَدَأْبِي نُـوَاحِـي

يَا مُنْيَةَ القَلْبِ دَاوِ بِالوَصْلِ مِنِّي جِرَاحِي

فَقَدْ تَمَادَى وَأَنْكَى مِنْكَ جِرَاحُ الصِّفَاحِ

إِلَى مَتَى الهَجْرُ يَا مَنْ بِالهَجْرِ قَصَّ جَنَاحِي

ومما يلحظ هنا أن عائشة في بعض أبيات شعرها التى تتحدث عن الصد والهجر تستخدم أسلوبا في عتاب الذات الإلهية كمعشوق لها بطريقة تصلح أن تكون في حب مادي أكثر منها في عشق إلهي . فهناك بعض التعبيرات من مثل : (تمادى – أنكى – جراح– إلى متى الهجر – قصّ جناحي) فكل هذه التعبيرات تصلح لعتاب معشوق بشري. ومما يلحظ أيضا ذلك التعبير النسوي " بالهجر قصّ جناحي الذى تستشعر فيه ضعف المرأة ورقة قلبها في الحب، وقد تكرر تعبيرها هذا في موضع أخر من ديوانها في قولها: (الوافر) [93]

وَلَكِنْ بِالصُّدُودِ حَبَسْتُمُونِي وَبَعْدَ الحَبْسِ قَصَّيْتُمْ جَنَاحِي

ولما حدث الهجر، وقد أيقنت أنها في حال صدود راحت تعاتب محبوبها وتستعطفه بحال المحب الضعيف، الذى أصبح الموت والحياة لديه سيان طالما ذلك الأمر

---

[92] –ديوان فيض الفضل وجمع الشمل لعائشة الباعونية . تحقيق أسعد عرار صـ .166

[93] –السابق صـ 180

هو ما يرضاه لها محبوبها، وانظر إلى قولها " فإن شئت واصلني وإن شئت لا تصل" تجد مدى ضعف المحب خاصة أنها أنثى ، حيث تقول : (الطويل)[94]

تَعَوَّدْتُ مِنْكَ الوَصْلَ حَتَّى أَلِفْتُهُ فَبَدَّلَ مِنْهُ الحُلْوُ مُرَّ صُدُودِ

وَضَاقَ بِي ذَرْعِي وَزَادَتْ بَلِيَّتِي وَأَيْقَنْتُ تَحْقِيْقًا بِفَقْدِ وُجُودِي

وَسَلَبْتَ رُوحِيَ فِي الصَّبَابَةِ عَنْ رِضًى وَأَنْوَاعُ بِشْرِي فِي ادْعَاءِ شُهُودِي

فَإِنْ شِئْتَ وَاصِلْنِي وَإِنْ شِئْتَ لا تَصِلْ فَأَنْتَ عَلَى كُلِّ الأُمُورِ وَدُودِي

وَإِنْ مِتُّ يَا فَخْرِي بِمَوتِيَ فِي الهَوَى وَإِنْ عِشْتُ يَا جَبْرِي بِتَمِّ سُعُودِي

ظلت عائشة تستعطف محبوبها ليجود عليها بالوصل، إلا أن الصدّ قد طال، وأجهدها الهجر، فقالت في مقام الصد عنها وقد جدّ بها الوجد وأضر بها الهجر، وعذبتها الأشجان، فحتى الذكر يورثها الأرق، ولا تملك في مقامها هذا سوى البكاء والاستعطاف. وانظر إلى قولها " وثدي الهجر مرضعه" تجد أنه تعبير نسوي غلبت على عائشة فيه فطرتها كأنثى لاستخدام مفردات وتعبيرات من محيط حياة المرأة، خاصة أن عائشة لم تنقطع في حبها الإلهي عن الحياة الدنيا، فقد كانت زوجة وأما . وذلك كله في قولها : (البسيط)[95]

مَا حَالُ مَنْ صَارَ مُرُّ الهَجْرِ مَطْعَمُهُ وَالظَّمَا مَشْرَبُهُ وَالقَبْضُ مَرْتَعُهُ ؟

تُصْلِى لَهِيْبُ جَحِيْمِ البُعْدِ أَضْلُعَهُ وَيُرْسِلُ الصَّدُّ مِنْ عَيْنَيهِ أَدْمُعَّهُ

وَيُنْتِجُ الشَّوقُ أَفْكَارًا تُغَيِّبُهُ بِحَيْثُ أَنْ لَيْسَ يَدْرِي أَيْنَ مَوضِعُهُ

---

[94] –ديوان فيض الفضل وجمع الشمل لعائشة الباعونية . تحقيق أسعد عرار صـ .308

[95] –السابق صـ .222

وَيَـبْعَثُ الوَجْدُ أَشْجَانًا تُهَيِّمُـهُ وَيُرْسِلُ اليَأْسَ أَوهَامًا تُرَوِّعُـهُ

وَيُورِثُ الذِّكْرُ أَشْوَاقًا تُؤَرِّقُـهُ وَلِلقَطِيعَةِ أَسْيَافٌ تُقَطِّعُـهُ

يَكَادُ يَقْضِي أَسًى مِنْ طُولِ فُرْقَتِهِ إِذَا تَذَكَّرَ حِيْنَ الوَصْلِ مَـجْمَعَهُ

يَرَى الوُجُودَ بِعَينِ العَقْلِ يَعْتِبُهُ عَلَى الوُجُودِ وَثَنْيُ الهَجْرِ مَرْضِعُهُ

مَا إِنْ يُلافِيهِ مِنْ قَبْلِ التِّلافِ سِوَى وَصْلٍ يَدُومُ لَـهُ فِيْـهِ مُمَتِّعُـهُ

طُوبَى لِمَنْ قَدْ تَلافَاهُ الوِّصَالُ كَذَا وَصَار هَذَا لِذِي المَحْبُوبِ مَجْمَعَهُ

لكن عائشة لم تيأس ، ولم تستسلم فراحت تهرول مجتهدة في طلب وصل محبوبها ، تطرح نفسها بين يديه متعبدة له متضرعة .حيث تقول : (السريع)[96]

أَضَرَّ بِي الهَجْرُ وَطُولُ البِّعَادِ وَالصَّدّ عَنِّي وَامْتِنَاعُ المُرَادْ

فَيَا جُنُوبِي طَلِّقِي مَضْجَعِي وَيَا عُيُونِي اكْتَحِلِي بِالسُّهَادْ

وَحَيَاتِـي إِنْ يَـدُمْ صَـدُّهُ فَارَقْتُكِ بِالرَّغْمِ حَتَّى المَعَادْ

وَيَـا صَفَا عَيْشِي أَيْقَنْتُ أَنْ لَا نَلْتَقِي إِلّا بِوَصْلٍ يُعَادْ

وَيَا سِقَامِي بِـي تَـرَفَّـقْ إِذَا دَاخَلْتَ أَعْضَائِي وَجِئْتَ الفُؤَادْ

وَيَـا لَهِيْبَ الشَّوقِ لا تَنْطَفِي حَتَّى تَرَى التَّقْرِيْبَ أَفْنَى البِعَادْ

وَيُنْشِدُ القَلْبُ وَقَدْ نَالَ مَا آمُلُهُ مِنْ فَضْلِ مَوْلَى جَوَادْ:

[96] –ديوان فيض الفضل وجمع الشمل لعائشة الباعونية . تحقيق أسعد عرار صـ .326

زَالَ العَنَا عَنَّا وَنِلْنَا المُنَى وَمَا بَقِى مِنْ بَعْدِ هَذَا مُرَادْ

- حالها وقت الوصل والقرب :

ظلت عائشة تجاهد في سبيل حصولها على الوصل وانكشاف الصد والهجر، وراحت تجاهد في سبل الوصول إلى رضا محبوبها وطريق وصله، حيث تقول : (المتدارك)[97]

فَـارِقْ الأَهْـلَا وَاتْرُكِ الكُـلَّا وَاقْصِدْ المَوْلَى يَحْصُل الوَصْلَا

قِفْ عَلَى الأَبْوَابْ وَالْثُمِ الأَعْتَابْ وَالـزَمِ الآدَابْ تَسْمَعَنْ أَهْلَا

وَانْفِ عَنْكَ النَّومْ وَأَدِمْ لِـلصَّـومْ وَاقْتَدِ بِالقَومْ يَنْتَفِ الفَصْلَا

وَابْذُلِ المَجْهُودْ فِي رِضَى المَعْبُودْ تَبْلُغِ المَقْصُودْ وَتَنَلْ فَضْـلَا

ومنه أيضا حيث قالت تصف طريق الوصل وما يجب على المحب فعله لكي يصل لرضا محبوبه [98]

تَعَشَّقْ تَمَزَّقْ فِى جَمَالِ الكَمَالْ وَابْذِلْ وُجُودَكَ إِنْ أَرَدْتَ الوِصَالْ

وَمَرِّغْ خُدُودَكَ فَوْقَ أَعْتَابِهِ

وَلَازِمْ بِسِرِّكْ قَرْعَ أَبْوَابِهِ

---

[97] –2تنظر القصيدة كاملة في ديوانها فيض الفضل وجمع الشمل لعائشة الباعونية . تحقيق أسعد عرار صـ١١٥، وهنا تمزج الشاعرة في هذه القصيدة بين الفصيحة والعامية، وجلها من الفصيحة ، وقد آثرت كتابة بعض الأفعال كما تنطق في العامية لاستقامة الوزن والتناسق الموسيقى، ومن ذلك تطويل الحركات القصيرة في الأفعال : " واهديني " ،" وافنيني "

[98] –السابق صـ .440

مِنْ مُفِيْضِ النَّوَالْ وَيَأْذَنْ فَتَدْخُلْ جَنَّةَ الاتِّصَالْ

بُلُوغُ الأَمَانِي مِنْ وَفَى مَنْ تُرِيدْ

بِصِدْقِ التَّفَانِي فِى الهَوَى يَا مُرِيدْ

وانظر هنا إلى جملة ألفاظ التصوف التى حملتها تلك الأبيات على صغرها من مثل: (تعشق– جمال الكمال– سرك– جنة الاتصال– صدق التفاني – مريد) مما يؤكد على ضخامة مخزون عائشة الصوفي وتشبعها بمصطلحاته، بل معايشتها والاندماج فيها حتى أصبحت من مكونات شخصيتها الأدبية، ومكونة لمعجمها الشعري على وجه الخصوص.

ولما حلّ عليها الوصل، وراقت لها نسائمه راحت تصف كيف شفاها الله من داء الصد الذى أوشك أن يهلكها، وكيف أكرمها بوصله لها، وكيف أصبحت في جنة الزلفى بسبب وصله لها، حيث تقول: (الكامل)[99]

نَظَرَ الحَبِيْبُ إِلَى المُحِبِّ بِلُطْفِهِ وَحَنَا عَلَيهِ بِجُودِهِ وَبِعَطْفِهِ

وَشَفَاهُ بِالوَصْلِ المُؤَبَّدِ مِنَّةً مِنْ دَاءِ صَدٍّ قَدْ سَعَى فِي حَتْفِهِ

وَمَلا وَحَيَّاهُ بِرَاحِ شُهُودِهِ فَحَيِي بِلَذَّةِ رَشْفِهِ مِنْ صَرْفِهِ

فَهُو الطَّرُوبُ بِسُكْرِهِ مِنْ خَمْرَةٍ طَرَبًا بِهِ مَلَكَ السُّرُورَ بِكَفِّهِ

وَهُوَ الذِى أَفْنَى بَقَايَا نَفْسِهِ فِى مَحْوِهِ عَنْ ذَاتِهِ مَعَ وَصْفِهِ

وَبَقَى بِبَاقِيهِ بَقَاءَ حَقِيْقَةٍ فِى جَنَّةِ الزُّلْفَى بِحَضْرَةِ كَشْفِهِ

[99] –ديوان فيض الفضل وجمع الشمل لعائشة الباعونية . تحقيق أسعد عرار صـ .360

وراحت عائشة تنعم بوصل الله لها، وتحمده على بلوغها مرادها، بل ما هو فوق مرادها من القرب وجمع الشمل ،وكيف أصبحت تتنعم بكؤوس الوصل في حانة القرب بصورة أبدية ، حيث قالت تصف الحياة في حبه وجمال وصله لها : (البسيط)[100]

هُوَ الحَبِيْبُ الذِى تَمَّ النَّعِيْمُ بِهِ لِجُمْلَتِي بَيْنَ مَسْمُوعٍ وَمَرْئِيّ

حَيَّا فَأَحْيَا وُجُودِي بَعْدَ فَنْيَتِهِ بِجُمْلَةِ الحُسْنِ فِي المَجْلَى الجَمَالِيّ

وَقَالَ هَاكَ كُؤُوسَ الوَصْلِ مُتْرَعَةً فِي حَانَةِ القُرْبِ بِالخَمْرِ الشُّهُودِيّ

وَدُونَكَ الشِّرْبُ مِنْهَا دَائِمًا أَبَدَا هُنَا شَرَابٌ حَبَا الظَّمْآنَ بِالرَّيّ

تَفْنَى الهُمُومُ بِسَرّاءَ مُجَدَدَةٍ وَتَبْسِطُ البَسْطَ بِالسِرّ الإِلَهِيّ

وَتُبْلِغُ العَبْدَ مِنَّا فَوقَ مُنْيَتِهِ وَتَجْمَعُ الشَّمْلَ بِالجَمْعِ الحَقِيْقِيّ

أَجَبْتُهُ وَصَبَاحُ الوَصْلِ مُبْتَسِمٌ وَلَيْلَةُ الهَجْرِ بَعْدِ النَّشْرِ فِي الطَّيّ

جَمِيْعُ أَمْرِكَ يَا مَوْلَايَ مُمْتَثَلٌ سَعْيِي إِلَيْهِ عَلَى رَأْسِي وَعَيْنَيّ

وعلى الرغم من سعادتها الغامرة ببلوغ الوصل، وفرحها بقربها من معشوقها، إلا أن عائشة العاشقة، التى فرغت قلبها كله لله لم تكتف بهذا المقام، بل أصبح الوصل الذى كانت تتمناه بالأمس لا ينقع لها غلة عشق ولا يبرد نار شوقها، حيث تقول : (الكامل)[101]

[100] –السابق صـ .352

[101] –ديوان فيض الفضل وجمع الشمل لعائشة الباعونية . تحقيق أسعد عرار صـ .357

وَلَقَدْ ظَنَنْتُ الوَصْلَ يَنْقَعُ غُلَّةً فَرَأَيْتُ وَصْلَتَهُ تَزِيدُ ظَمَائِي

وها هي تطلب من ذاتها ومن كل من حولها من محبي الله تكرار ذكره، فهي لا تكتفي من حبه أبدا، فلطالما هي ظمآنة لمورد قربه وخمر وصله طيلة حياتها، حيث قالت : (مجزوء الوافر)[102]

أَلَا يَا صَاحِبِي كَرِّرْ بِحَقِّكَ ذِكْرَ مَنْ أَهْوَى

فَمِنْ وِرْدِي لِمَورِدِهِ مَدَى مَا عِشْتُ لَا أَرْوَى

وَعَنِّي فِيْهِ قَدْ أَضْحَتْ أَحَادِيثُ الهَوَى تُرْوَى

وَفَاحَ بِنَشْرِهَا نَشْرٌ مَدَى الأَيَامِ لَا يُطْوَى

فَمَالِيَ عَنْهُ مِنْ صَبْرٍ وَلَا جَلَدٍ وَلَا سَلْوَى

وَمَالِيَ طَاقَةٌ بِالبُعْـ ـدِ عَنْهُ لَا وَلَا أَقْوَى

وَدَمْعِيَ فِي الهَوَى هَامٍ وَقَلْبِيَ بِالجَوَى يُشْوَى

- الفرح والسعادة في قربها من الله :

وتواصل عائشة رحلتها في الترقي في مقامات العشق والقرب من محبوبها الأوحد ، وكلما بلغت منزلة شعرت بسعادة غامرة تملأ قلبها بشارة باقتراب دونها من الله وتلذذها بخمرة عشقه ومحبته، حيث قالت: (الكامل)[103]

---

[102] –السابق صـ .88

[103] –ديوان فيض الفضل وجمع الشمل لعائشة الباعونية . تحقيق أسعد عرار صـ 357

بُشْرَاكَ يَا قَلْبِي فَقَدْ مَنَحَ الـوَفَا وَنَفَى الـجَفَا وَأَزَالَ كُلَّ غِطَائِي

وَبَدَتْ ثُغُورُ البَسْطِ بَاسِمِـةً بِمَـا وَافَى مِنَ الأَفْرَاحِ وَالسَّرَّاءِ

وَشَدَتْ تَـهَانِيهِ عَلَى قُلَلَ اللِقَا وَمَجَالِسِ التَّقْرِيْبِ وَالإِدْنَاءِ

هَـذِي المُدَامُ وَهَـذِهِ كَـاسَاتُـهَـا تُجْلَى عَلَى الجُلَسَاءِ وَالنُّدَمَاءِ

فَاشْرَبْ وَعِشْ وَبِهَا انْتَعِشْ يَا مَنْ دُهِشْ بِسُفُورِ حُسْنٍ لَاحَ بَعْدَ خَفَاءِ

وَاخْـلَـعْ وُجُودُكَ فِي شُهُودِ وُجُـودِهِ خَلْعًا يُفِيْدُكَ مِنْهُ كُلُّ وَفَاءِ

وتصل عائشة إلى منزلة الابتهاج بعيشها في ظل وصل محبوبها ، فقلبها الذي يعج بالسعادة الآن، هومنذ الأزل لم يعرف غير حب الله شيئا، فسقاه حب الله شربة قرب جلت معنى الجمال بذات الشاعرة، حيث تقول : (الكامل)[104]

مَا أَبْهَجَ العَيْشَ الذِي بِكَ طِيْبُهُ وَدَوَامُهُ يَا بَهْجَتِي وَحَيَاتِي

وَحَيَاةِ حُسْنِكَ وَهْوَ فِرْدَوسِي الذِي مَاعَنْهُ لِي حَوْلٌ مَدَى الحَالَاتِ

مَا ذَاقَ قَلْبِي غَيْرَ حُبِّكَ كَيْفَ لَا وَهَوَاكَ قَدْ جُبِلَتْ بِهِ ذَرَّاتِي

وَسَقَيْتَنِي مِنْ صَرْفِ حُبِّكَ شَرْبَةً أَحَدِيّةً جَلَتِ الجَمَالَ بِذَاتِي

[104] –السابق صـ .379

وتصل عائشة إلى مرحلة الإفصاح المباشر عن سعادتها، وأنها بلغت الوصل الذي يحقق لها عين إرادتها ووجودها، وأنها أشرفت على مشاهدة شمس جلاله والقرب القريب من محبوبها وقد وافى سعدها بالوصل، حيث تقول: (مجزوء الكامل)[105]

وَافَـى أَوَانُ سَعَـادَتِـي وَجَـلا أَوَانِسَ عَادَتِي

مِنْ طِيْبِ وَصْلٍ قَدْ وَفَى بِوَفَاءِ عَيْنِ إِرَادَتِي

وَسُفُورُ شَمْسِ جَلالِهِ بِجَمَالِ كُلِّ مَلَاحَةِ

مَازِلْتُ أَجْلُو حُسْنَهَا فِي لُطْفِ كُلِّ لَطَافَةِ

ولا يخفى على المتأمل لأبيات عائشة السابقة كم الشعور بالفرح والسرور المشوب بالحرص على قرب الله ووصله لها، واستخدامها مفردات تدل على الغاية التى قصدتها من التعبير عن شدة فرحها بوصل محبوبها من مثل: (بشراك يا قلبي – منح الوفا – نفى الجفا– بدت ثغور–انتعش–ما أبهج العيش – بهجتي – سعادتي...إلخ) فجميعها تصف مقدار سعادتها بالقرب والوصل .

- زهدها في الجنة وعدم خوفها من النار:

تلك السعادة بالقرب، وتلك المنزلة التى بلغتها جعلت كل ما فيها متعلق بالله وحده، منقطع قلبها لحبه فقط، حب لذاته منزه عن الأغراض والغايات، فلا تطلب منه شيئا، ولا ترجو منه عطايا،ولا غاية لها من حبه إلا غاية واحدة وهي الرضا منه عليها، فعشقها له فقط من أجل ذاته، فلا تطمع في جنة، ولا تخشى تعذيب نار، هي فقط

[105] –نفسه صـ .347

تبحث عن رضاه ومشاهدة وجهه. فقد قالت وقد أحست بقرب الله منها تصف أنها لاتريد جنات النعيم، بل تريد رؤية الله، فهي أغلى ما تريد:(البسيط)[106]

رَقَيْتُمُونِي بِكُمْ مَرْقًى غَضَضْتُ بِهِ عَنْ كُلِّ حَالٍ وَعَنْ كُلِّ المَقَامَاتِ

فَلا أُرِيدُ جِنَانًا لِلنَّعِيمِ بِهَا لَكِنْ لِرُؤْيَاكَ يَا أَغْلَى المَرَامَاتِ

ومنه أيضا قولها : (الطويل)[107]

وَإِنْ قَصَدُوا جَنَّاتِ عَدْنٍ وَمَا حَوَتْ فَمَالِيَ فِيْهَا غَيْرُ وَجْهِكَ مَقْصَدُ

فَيَا مُنْتَهَى أَنْهَى نَهَايَةِ مَقْصِدِي وَمَنْ لِي مِنْهُ السَّمْعُ وَالرَّأْيُ وَاليَدُ

إِذِا كُنْتَ لِي رَبِّي فَذَلِكَ جَنَّتِي وَإِنْ لَمْ فَدَارُ الخُلْدِ جَمْرٌ مُوقَّدُ

وَمَا تُغْنِي جَنَّاتُ النَّعِيمِ لِذَائِقٍ حَلَاوَةَ: يَا عَبْدِي أَنَا لَكَ سَيِّدُ

حيث تؤكد في تلك الأبيات أن وجه الله هو غاية مقصدها، فإن قصد العباد جنات عدن وما فيها من نعيم، فهي ترى أن تلك الجنات في رضا الله عنها، فلا تغني جنات النعيم قلبها عن مناداة الله له بالقرب والمحبة بأن يكون له سيدا .

وتصل عائشة إلى درجة من التأكد من صدق ما في قلبها من الزهد في جنات النعيم، للحد الذي تقسم بذات الله أنها لا تريدها إلا لمشاهدة الله وحسن لقائه، وأنها لا تخاف عذاب الجحيم إلا مخافة أن يفوتها مشاهدة الله والقرب منه. تقول : (الخفيف)[108]

---

[106] –ديوان فيض الفضل وجمع الشمل لعائشة الباعونية . تحقيق أسعد عرار صـ .179-178

[107] –السابق صـ .168

[108] –ديوان فيض الفضل وجمع الشمل لعائشة الباعونية . تحقيق أسعد عرار صـ .124

قَسَمًا صـادِقًا بِذَاتِكَ رَبِّـي مَالِكَ المُلْكِ ذَا البَقَا وَالعَلاءِ

مَا أُرِيْدُ الـجِنَانَ رَبِّي لِقَصْرٍ وَنَـعِيْمٍ وَبَـهْجَةٍ وَضِيَـاءِ

بَلْ لِأَنِي أَرْنُو إِلَيْكَ دَوَامًا وَأَنَالُ المُنَى بِطِيْبِ اللِقَاءِ

وَكَذَا مَا أَخَافُ حَرَّ جَحِيْمٍ يَا إِلَـهِي إلا لِفَوتِ مُنَائِي

فَبِعِزِّ الـجَلالِ يَا مُتَعَالٍ وَكَمَالِ السُّلْطَانِ وَالكِبْرِيَاءِ

أَعْطِنِي بُغْيَتِي وَكُلَّ مُرَادِي مِنْكَ رَبِّي مُحَقِّقًا لِرَجَـائِي

ومما يلحظ هنا أن عائشة الباعونية قد وافقت رابعة العدوية في هذا المقام، فقد زهدت كلتاهما في الجنة ولم تخش النار، ولم يكن لديهما طمع في نعيم، أو خوف من جحيم، إنما غاية الأمر وذروة سنامة لديهما محبة الله لذاته فقط.

- بلوغها مقام المنادمة :

لما بلغت عائشة تلك الدرجة من الصفاء والخلوص لمحبة ذات الله، وفارقت الأغيار، وخلى قلبها من السوى، راحت تتلقى أنوار الله، وتنعم بقربه ووصله، وأضحى قلبها مستودع المعشوق وعرش تجليه في ذاتها، فلا وصف لسعادتها، فمعشوقها حاضر معها في كل نفس من أنفاسها، تجالسه وتنادمه، ويغدق عليها خمر الصدق والتحقق والصفاء، ويدير عليها كؤوس المحبة الخالصة، فقالت تصف كيف تجلى وصل الله لها، وكيف نادمته، وكيف لاطفها بالأنس :(الطويل)[109]

[109] –السابق صـ .335

تَجَلَّى عَلَى سِرِّي حَقِيقَتُهُ جَهْرًا تَجَلِّي كَمَالٍ لَمْ يَدَعْ دُونَهُ سَتْرَا

وَلَمَّا تَجَلَّى دَكَّ طُورَ أَنِيَّتِي فَلَمْ يُبْقِ مِنِّيَ الآنَ عَيْنًا وَلا أَثَرَا

وَصِرْتُ مِنَ الإِطْلَاقِ فِي الغَايَةِ التِي عَلَيْهَا مَدَارُ القَومِ فِي الفَنْيَةِ الكُبْرَى

فَلا غَيْرَ لِي يَبْدُو وَلا سُؤْلَ أَبْتَغِي وَلا وَهْمَ بِي يَسْرِي وَلا هَمَّ لِي يَطْرَا

حَبِيْبٌ تَوَالَى غَرْفُ مَعْرِفَتِي بِهِ فَمَعْرِفَةُ الأَغْيَارِ عِنْدِي غَدَتْ نُكْرَا

جَلَانِي تَجَلِّيهِ فَأَفْنَى بَقِيَّتِي فَصِرْتُ مِنَ الأَكْوَانِ أَجْمَعِهَا حُرًّا

وَعَوَّضَنِي عَنِّي بَقَائِي بِحَقِّهِ بِجَنَّةِ عَدْنٍ لَا أَجُوعُ وَلا أَعْرَى

يُدِيرُ عَلَى سِرِّي كُؤُوسَ شُهُودِهِ فَأَشْرَبُهَا صِرْفًا، فَتُورِثُنِي سُكْرَا

فَلَمْ أَدْرِ سُكْرِي بِالخِطَابِ أَو اللِقَا وَسَاقِي الحُمَيَّا بِالحَقِيقَةِ هُوْ أَدْرَى

يُلاطِفُنِي بِالأُنْسِ فِي حَضْرَةِ الوَفَا وَيُطْلِعُنِي سِرًّا وَيَمْنَحُنِي بِرَّا

فَرُوحِي لَهُ أُفْقٌ، وَسِرِّيّ مَطْلَعٌ وَقَلْبِيَ لَهُ مَثْوًى، وَعَقْلِي لَهُ أَسْرَى

فَلا تَلُمِ العُشَّاقَ إِنْ طَلَبُوا الفَنَا وَلَمْ يَرْهَبُوا فِي العِشْقِ قَتْلًا وَلا أَسْرَا

ويظهر من خلال الأبيات السابقة كيف ترقت عائشة إلى مقام المنادمة بعدما تخلصت من الأنا والسوى، وتخلصت مما كانت تعانيه من البعد، فأضحت بلا ذات، فذاته عوضتها عن ذاتها بجنات خلود وشهود ومقام، فصارت روحها لمعشوقها أفقا، وقلبها له مثوى.

ومما يلحظ أيضا مدى تشبع لفظها الشعري بروح القرآن الكريم في مثل قولها " ولما تجلى دكَّ طور أنيتي" متناصة مع قول الله تعالى " فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا..."[110]

ومن يفر ديوانها سوف يجد من مثل ذلك الكثير والكثير، فالقرآن الكريم حاضر في كل أشعارها . ولاتخفى عائشة كيف وصلت إلى هذه الدرجة من منادمة الله، فقالت تخبر كيف بلغت تلك المنزلة: (الكامل)[111]

أَبَـدًا أَرَاكَ مُنَادِمِي فِـى ذَاتِــي بِلَطَـائِفِ التَّخْصِيْصِ وَالحَظَوَاتِ

مَا صَحّ لِي هَذَا الشُهُودُ وَقَدْ بَقِـي شَـيءٌ سِوَاكَ بِصِحَّةِ الفَنَيَـاتِ

فَنَيَاتِ صِدْقٍ قَدْ وَصَلْتُ المُنْتَهَى مِنْهَا، وَجُزْتُ بِهَا مَدَى الغَايَاتِ

الـغَيْرُ وَهْمٌ لَا مَحَالَةَ، وَالسِّوَى عَدَمٌ مَـعَ الـحَقِّ المُبِيْنِ الذَّاتِـي

هُوَ أَنْتَ يَا مَنْ فِـى الفَنَا عَنِّي بِهِ نِلْتُ البَقَا فِـى المَحْوِ بِالإِثْبَاتِ

وَظَفِرْتُ بِالعَيْشِ المُقِيْمِ بِوَصْلَـةٍ جَمَعَتْ عَلَيْكَ الشَّمْلَ بَعْدَ شَتَاتِ

حَيْثُ اتْجَهْتُ رَأَيْتُ حُسْنَكَ مُسْفِرًا فِي سَائِرِ الخَطَـرَاتِ وَالنَّظَرَاتِ

وتظل عائشة تؤكد على هذا المعنى، وتخبر أنها نالت البقاء بفنائها في معشوقها ، وظفرت بالعيش المقيم لمّا رضي عنها وأمدها بوصله الدائم ، فاطمأنت روحها بمؤانسة الله لها ومنادمته، فتحقق لها وجوده بشهوده، وزال عن روحها ذلك القلق والتوتر الذي

---

[110] –سورة الأعراف الأية .143

[111] –ديوان فيض الفضل وجمع الشمل لعائشة الباعونية . تحقيق أسعد عرار صـ .379

كان يعتريها حال الصد والهجر، وسكنت روحها وترقت بمنادمة معشوقها الأوحد، فلم تعد تشعر بشيء سواه، ولا تجد في نفسها خوف وهو أمان قلبها وطبيبه . حيث تقول : (الوافر)[112]

وَطُفْتَ عَلَيَّ فِى حَانِ التَّصَافِي بِكَأسٍ عَيْشُ شَارِبِهِ يَطِيْبُ

بِرَاحٍ نِلْتُ أَقْصَى الرِّيّ مِنْهُ وَفِي رَبَّي تَرَاءَتْ لِي الغُيُوبُ

وَفِى سُكْرِي رَقَيْتُ إِلَى مَقَامٍ أَتَانِي فِيْهِ تَمْكِينٌ عَجِيْبُ

تُنَادِمُنِي وَتَسْقِينِي مُدَامِي وَتُحْضِرُنِي لَدَيْكَ فَلا أَغِيْبُ

وَتُدْنِيْنِي وَتُشْهِدُنِي جَمَالًا تَقَدَّسَ أَنْ يَكُونَ لَهُ ضَرِيْبُ

فَلا خَوفٌ وَأَنْتَ أَمَانُ قَلْبِي وَلَا سَقَمٌ وَأَنْتَ لِيَ الطَّبِيْبُ

- حال سكرها بخمر الحب:

إن من يقرأ دواوين الشعر الصوفي يجد فيها حضورا هائلا للخمر، فلطالما تغنى شعراء الصوفية بلذة الخمر التى ترمز في فكرهم إلى عميق محبة الله والقرب منه، تلك الخمر التي يغيب بها العاشق في حضرة معشوقه فلا يشعر بشيء سواه، ولا يرى شيئا سوى حسن محبوبه، فيغيب بها ليكون حاضرا بين يدي الله، ولما كانت عائشة الباعونية عاشقة تسير على درب السابقين لها، راحت تتغنى بتلك الخمر التى دعاها لها معشوقها، فسقاها منها وأغرقها في لذتها، فراحت تنظم معانيها في أشعارها، وتصف فعلها في قلبها برمز يشي بجميل قربها من الله، "لكن رمز خمرة الباعونية تختلف عن الخمر عند شعراء

[112] –ديوان فيض الفضل وجمع الشمل لعائشة الباعونية . تحقيق أسعد عرار صـ .418

الصوفية، و التي تعمل فيهم كما تفعل الخمر بشاربها؛ لأن الباعونية متصوفة لم تعتزل الحياة، بل مارست تفاصيلها التي يمارسها الإنسان العادي، وهي بذلك تختلف عن رابعة العدوية على سبيل المثال، كما أن شعر المرأة في العرفان الصوفي قد يصوغ واقعًا فنيًّا مختلفًا عن شعر الرجل، فخمرة الباعونية يشع منها الصفاء، ويتحقق فيها الهناء ."[113]

فراحت تخبر عن تلك الخمر التي تنعمت بها في منادمة الله، حيث قالت تصف الخمر الحلال التى اختص الله بها محبيه : (الوافر)[114]

بِحَانِكَ سَيِّدِي خَمْرٌ حَلالٌ مُدِيرُ كُؤُوسِهَا مِنْكَ الجَمَالُ

خَصَصْتَ بِشُرْبِهَا قَومًا كِرَامًا هُمُ الفِتْيَانُ وَالنُّجُبُ الرِّجَالُ

إِذَا سَكِرُوا بِهَا فِيهَا تَلاشُوا فَلا وَهْمٌ يَلُوحُ وَلا خَيَالُ

وَلَا غَيْرٌ يَكُونُ بِهِ احْتِجَابٌ وَلا حِسٌّ يَكُونُ بِهِ انْفِصَالُ

فَنَاءً يَا لِعَمْرِي فِيهِ فَازُوا بَقَاءً لَا يُكَدِّرُهُ زَوَالُ

وَعَيْشًا بِالوَفَا رَغِدًا بَهِيجًا يُرَغِّدُهُ وَفَاكُمْ وَالوِصَالُ

فَهُمْ فِي رَوضَةٍ مِنْ غَيْرِ كَيْفٍ وَأَنَّى الكَيْفُ فِي ذَا وَالمِثَالُ

فَيَا بَاغِي اللُحُوقِ بِهِمْ بِجَهْلٍ وَيَزْعُمُ أَنَّ مَوصِلَهُ احْتِيَالُ

---

[113] –1إبداع اللغة في الرمز الخمري عند شاعرة المتصوفة عائشة الباعونية . عباس عبد الحليم عباس . بحث منشور في مجلة نزوى الإلكترونية العدد ٥٢/١٨/٧/٢٠٠٩م .

[114] – ديوان فيض الفضل وجمع الشمل لعائشة الباعونية . تحقيق أسعد عرار صـ 338.

لَعَمْرُو اللهِ مَا هَذا بِكَسْبٍ وَظَنُ الكَسْبِ فِي هَذَا مُحَالُ

تلك الخمر الحلال التي فازت بها هي ومن اختصه الله من محبيه بها لذة لا يدركها محتال يظن أنه يقوى على كسبها بذاته، إلا أنها من منظور عائشة عطاء لا احتيال عليه ولا قدرة لمخلوق على صنعه، فتخبر أن تلك الخمر يسقيها الله لمن أخلص في محبته؛ ليقربه منه ويهيئه لمنادمته وقربه ، حيث تقول : (مجزوء الرمل)[115]

نَظَرَ السَّاقِي إِلَيْنَا وَجَلا الكَأْسَ عَلَيْنَا

وَدَنَا ثُمَّ تَدَلَّى وَسَقَانَا فَارْتَوَيْنَا

خَمْرَةً فِي السُّكْرِ مِنْهَا غَيَّبَتْنَا فَامَّحَيْنَا

حَبَّذَا مَحْو فَنَاءٍ فِيْهِ عِشْنَا وَبَقَيْنَا

بِبَقَا بَاقٍ عَلَيْنَا قَدْ تَجَلَّى فَرَأَيْنَا

مُطْلِقَ الحُسْنِ المُفَدّى وَالوُجُودَ الحَقِّ عَيْنَا

وَتَنَادَمْنَا وَطِبْنَا وَحَبَانَا فَامْتَلَيْنَا

لَا تَلُمْنَا إِنْ شَطَحْنَا أَيُّهَا المُنْكِرْ عَلَيْنَا

ويلحظ هنا أن الخمر التي تتحدث عنها عائشة هنا خمر تكون أداة للفناء المطلق، الذي يحقق البقاء والوجود منادة لذات الله . كما يلحظ أيضا استخدام المعنى واللفظ

[115] –السابق صـ.334–333

القرآني في موضع التجلي في قولها " ودنا ثم تدلى" تناصا مع قول الله تعالى " ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوسَيْنِ أَوْ أَدْنَى "[116].

وخمرتها هذه لا تسكر ولا تهدّ الجسد، إنما هي شفاء تذهب عن شاربها الحزن والأتراح، لكن يحذر البوح بسرها ، فمن باح به فقتله مباح، وما أظن القتل سوى حرمانه منها، فلا حياة له إذا حرم منها، فتقول فيها: (الكامل) [117]

هِيَ خَمْرَةٌ مَا خَامَرَتْ عَقْلَ امْرِىءٍ إِلَّا وَعَـنْهُ تَوَلَّتِ الأَتْـرَاحُ

وَإِذَا شَرِبْتَ وَدَبَّ فِيْكَ دَبِيْبُهَا وَغُلِبْتَ فَاطْرَبْ مَا عَلَيْكَ جُنَاحُ

وَاحْذَرْ تَبُوح بِـسِرِّهَا إِلَّا إِذَا وَافَـاكَ إِذْنٌ مُقْتَضَـاهُ سَمَاحُ

فَالبَائِحُونَ بِسِرِّهَا وَبِـغَيْرِ مَا إِذْنٍ فَقَتْلُهُمُ بِـذَاكَ مُبَاحُ

وعندما تحاول عائشة تقديم وصف لتلك الخمر، تقدم تقريبا لفعلها يفهمه الناس بصورة حسية، بحيث تخبر أن خمرتها تلك لو تبدى نورها لليل مظلم لصار صحوا، ولو أن أهل الكفر شمّوا عطرها لصاروا مسلمين، حيث تقول : (الطويل)[118]

يَقُولُونَ: هَاتِي وَصْفَهَا وَفِعَالَهَا بِـإِيضَـاحِ قَولٍ وَانْفِ أَوْضَارَ شُبْهَةِ

فَقُلْتُ: سَنَاهَا لَـو تَبَدَّى بِلَيْلَـةٍ دَجَوِيَّةٍ أَضْحَتْ كَأَعْظَمِ صَحْوَةِ

وَنَفْحَتُهَا لَـو شَمَّ عِطْرَ أَرِيْجِهَا ذَوو الكُفْرِ أَضْحَوا مُسْلِمِي بِالعَقِيْدَةِ

---

[116] –سورة النجم الأية .8،9

[117] –ديوان فيض الفضل وجمع الشمل لعائشة الباعونية . تحقيق أسعد عرار صـ 202

[118] –السابق صـ .241

وَلَو ذَاقَ مَنْ أَعْيَا الأَطِبَّاءَ دَاؤُهُ مِزَاجًا لَهَا فَازَ المِزَاجُ بِصِحَّةِ

وَلَو فَوقَ مَيْتٍ رُشَّ مِنْ صَفْوِ صِرْفِهَا لَقَامَ بِإِذْنِ اللهِ حَيًّا بِسُرْعَةِ

تُزِيْلُ العَمَى، تَشْفِي الظَّمَا ، تُدْخِلُ الحِمَى تَجِي بِالهَنَا ، تَنْفِي العَنَا بِالمَسَرَّةِ

تُزِيحُ الغَطَا، تُولِي العَطَا، تَغْفِرُ الخَطَا تُحِلُّ الرِّضَى، تُطْفِي لَظَى كُلِّ فِتْنَةِ

هِيَ الشَّمْسُ إلا مَا تَغِيْبُ وَإِنَّهَا لَتَطْرَحُ أَهْلَ الشُّرْبِ فِي تِيْهِ غَيْبَةِ

لَهَا البَدْرُ كَأْسٌ وَالنُّجُومُ خِبَاؤُهَا وَنِدْمَانُهَا الأَحْبَابُ أَهْلُ المَحَبَّةِ

وَحَانَتُهَا قُدْسِيَّةٌ صَمَدِيَّةٌ مُقَدَّسَةٌ عَنْ شَيْنِ كَيْفٍ وَوِجْهَةِ

وَمَانِحُهَا الرَّحْمَنُ جَلَّ جَلالُهُ لِمَنْ شَاءَ أَفْضَالًا بِغَيْرِ وَسِيْلَةِ

وهي لا تمل أبدا من شربها، وتطلب من الساقي أن يقربها من الدن؛ لتنعم بها وتزول بها كل همومها وعيوبها، حيث تقول : (مجزوء الرمل)[119]

سَاقِي القَومِ أَدِرْهَا خَمْرَةً فِي كَأْسِ لُطْفِ

وَاجْلُ أَنْوَارَ سَنَاهَا بِوِدَادٍ وَبِعَطْفِ

وَاسْقِنِي حَتَّى تُرَوِّي جُمْلَتِي مِنْهَا بِصِرْفِ

وَادْنُ لِي الدَّنَّ وَقُلْ لِي ذَا شَرَابٌ لَكَ يَشْفِي

وَمِنَ العَيْبِ يُنَقِّي وَمِنَ الغَيْرِ يُصَفِّي

[119] –ديوان فيض الفضل وجمع الشمل لعائشة الباعونية . تحقيق أسعد عرار صـ .275، 274

وَبِكُلِّ الفَرْحِ يَأْتِـي وَلِكُلِّ الـهَـمِّ يَكْفِـي

ولما بلغت كل المنى من القرب والسكر بخمر المنادمة الإلهية، راحت تتغنى بذلك بشعر يشع منه الفرح والسرور حيث تقول : (مجزوء الوافر)[120]

فَـآنَسَـهُ فَأَبْسَطَهُ وَخَاطَبَهُ فَنَاجَاهُ
وَأَدْهَشَهُ فَأَنْعَشَـهُ وَأَفْنَاهُ فَأَبْقَاهُ
وَنَادَمَهُ فَكَرَّمَهُ وَأَعْطَاهُ فَأَرْضَاهُ
وَأَحْضَرَهُ فَغَيَّبَهُ وَسَقَّاهُ فَـرَوَّاهُ
وَأَسْكَرَهُ فَحَيَّرَهُ وَحَيّاهُ فَأَحْيَاهُ
بِكَأْسٍ جَلَّ عَنْ أَنْ تُدْ رِكَ الأَفْهَامُ مَعْنَاهُ
وَمَعْنَاهُ بِأَنَّ اللـ ـهَ لا إِلَهَ إِلا هُو

- بلوغها مقام المشاهدة :

إن الصوفي الذي يجاهد ليتدرج في مقامات القرب من الله يصل إلى الدرجة التي كان لها أهلا، ويظل هذا العاشق يكافح طيلة حياته أملا في مشاهدة الله، وهو مقام لا يصل إليه إلا من فنى عن ذاته في ذات الله، فهو يرى الأشياء كلها بالله وفي الله ، ويستشعر حضرة الله وتجليه في قلبه، فهي لذة نور لا يعلمها إلا من ذاقها بصدق، و ظلت عائشة الباعونية طيلة حياتها تجاهد من أجل هذه اللذة، فكل مبتغاها – كما أسلفت– رضا الله ومشاهدة وجهه الكريم، فبلغها الله الوصل بعد الهجر، ثم رقت إلى المنادمة حتى بلغت مقام السكر بخمر الحقيقة في حضرة الله، وعندها تشبعت روحها بمشاهدة الله ، فصارت تراه يقينا في قلبها، متفردا بالحب والعشق فيه، لا ترى سواه،

[120] –ديوان فيض الفضل وجمع الشمل لعائشة الباعونية . تحقيق أسعد عرار صـ .142

فهي في جنة لا يدركها إلا من خاض مثل الذي خاضت . فقالت في مقام الوصل والمشاهدة لحسن محبوبها وجلاله، وأنها قد بلغت أقصى الأماني ببلوغها مبتغاها ومطلوبها بمشاهدة الله : (البسيط)[121]

فِى أُفْقِ رُوحِيَ لَاحَ الشَّمْسُ وَالقَمَرُ فَشَاهَدَ القَلْبُ مَا لاشَاهَدَ البَصَرُ

مَحْضُ الجَمَالِ تَجَلَّى فِى مَظَاهِرِهِ عَلَى بَصَائِرَ لَيْسَ عَنْهَا يَسْتَتِرُ

هُوَ الحَبِيْبُ الذِي فِى شَمسِ وِحْدَتِهِ غَابَ السَّوَاءُ فَمَا مِنْ ظِلِّهِ أَثَرُ

بَدَى لِعَيْنَيَّ بِالكَشْفِ الذِي ظَفَرَتْ بِمُنْتَهَاهُ يَدَي وَانْزَاحَتِ السّتُرُ

أُشَاهِدُ الحُسنَ بِالعَيْنِ التِي كُحِلَتْ بِنُورِهِ فَالسَّنَا مِنْهُ لَهَا نَظَرُ

جَمَالُ حِبِّيَ مَشْهُودِي وَحَضْرَتُهُ رَوضِي وَنَجْوَاهُ بِالتَّخْصِيْصِ لِي ثَمَرُ

ويلحظ هنا أن عائشة الباعونية قد بلغت في ذروة عشقها لله مشاهدة الله وحضورها في حضرته ومنادمته لها بخمرة العشق، وهذا الأمر قد عاشت رابعة العدوية وماتت ولم تدرك مبتغاها منه، فرابعة كانت تدرك أن مشاهدة الله لا تتحقق فى الحياة الفانية، وأنها لن تدرك ذلك يقينا إلا بعد الموت . فهل بلغت عائشة درجة من القرب لم تبلغها رابعة ؟ أم أن الفترة الزمنية التي تفصل بينهما جعلت الفكر الصوفي يتطور فلسفة عند عائشة الباعونية لتأخرها ؟ أم ربما بلغت رابعة ذلك المبلغ ولم يصلنا من شعرها ما يثبت ذلك؟ الحقيقة أن كل الاحتمالات يحتمل أن تكون صوابا، فليس لدينا دليل قاطع على نفي أحدها .

[121] –السابق صـ . 377

ومما أثبتته عائشة في شعرها أنها تفانت في حبها حتى بلغت مقام المشاهدة بلا حجاب تقول: (مجزوء الكمل)[122]

مَـا حَبَّـهُ إِلا فَتًـــى بِـدَوَامِ ذِكْـرَاهُ طَـرِبْ

زَهِدَ السِّوَى تَرَكَ الجَمِيْـ ـعَ وَفِي رِضَاهُ قَدْ رَغِبْ

فِيْـهِ تَفَانَـى وَامّحَـــى حَتّى رَآهُ وَمَـا حُـجِبْ

وعندما تحاول تقريب معنى المشاهدة لمن حولها تخبرهم أنها تشاهد حسن الله في كل توجه لها، فجمال معشوقها في قلبها تجلوه في ذاتها في كل أحوال الصفاء والقرب. حيث تقول : (الكامل)[123]

حَيْثُ اتْجَهْتُ رَأَيْتُ حُسْنَكَ مُسْفِرًا فِي سَائِرِ الخَطَرَاتِ وَالنَّظَرَاتِ

فَجَمَالُ وَجْهِكَ نُصْبَ عَيْنِيَ دَائِمًا أَجْلُوهُ فِي ذَاتِي بِصَفْوِ مِرَاتِي

وتخبر أيضا أنها عندما تفانت عن وجودها وذاتها كأنها صارت بجملتها عينا تشاهد الرحمن فتقول : (المنسرح)[124]

وَمُذْ تَجَلَّى فَنَيْتُ عَنْ كَونِي وَعَنْ وُجُودِي وَسَائِرِ الأَكْوَانْ

وَفِى فَنَايَ وَفِى البَقَاءِ لِوَصْلِي فَصِرْتُ عَيْنًا تُشَاهِدُ الرَّحْمَنْ

---

[122] –ديوان فيض الفضل وجمع الشمل لعائشة الباعونية . تحقيق أسعد عرار صـ .134

[123] –السابق صـ .379

[124] –نفسه صـ 442

وما أن شاهدت حتى زهدت في دنيا الناس، وأصبحت جميعها أحداق تشاهد الله ولا تشاهد سواه، فتقول : (البسيط)[125]

تَرَكْتُ لِلنَّاسِ دُنْيَاهُمْ وَبَهْجَتَهَا شُغْلًا بِذِكْرِكَ يَا دِيْنِي وَدُنْيَائِي

يَا مَنْ جَمِيْعِيَ أَحْدَاقٌ تُشَاهِدُهُ

وَكُلُّ كُلِّيَ يَشْكُرُهُ وَيَحْمِدُهُ

قَلْبِي بِنُورِكَ قَدْ صَفَّيْتُ مَورِدَهُ

وَصَارَ يَحْسِدُنِي مَنْ كُنْتُ أَحْسِدُهُ وَصِرْتُ مَولَى الوَرَى مُذْ صِرْتَ مَوْلَائِي

- الوساطة في الحب عند عائشة الباعونية :

من الأمور الملفتة للنظر، والتى تسترعي انتباه الباحث عناية عائشة الباعونية بذكر مشايخها، ومدى تمجيدها لهم، للحد الذى تكون في ذروة الاستغراق في وصف محبة الله ويأتي ذكرهم بين أبياتها، وليس ذلك فحسب بل إنها تجعل من مشايخها وسيلة لمحبة الله، وطريقا لبلوغها ذلك، بل من الممكن أن يأتي طلب رضا الله مقرونا برضاهم عنها، وتطلب من الله أن يجعلهم يرضون عنها، ويزيل عناءها بهم، فقد بلغ مقام الشيخ عند عائشة الباعونية مبلغا عظيما يمجد من خلاله الشيخ تمجيدا منقطع النظير، والحقيقة أن مرجع ذلك ربما يكون لفلسفة العصر المملوكي الذي عاشت فيه الشاعرة، ومدى تطور الفكر الصوفي فيه، وأيضا كون عائشة امرأة تربت على أيدي رجال فتحوا لها أبواب علم وزهد جلبت لقبلها كل سبل السعادة، فهي تحمل لهم الجميل وتكن لهم الاحترام. وعلى

[125] –ديوان فيض الفضل وجمع الشمل لعائشة الباعونية . تحقيق أسعد عرار صـ 146

النقيض من ذلك كانت رابعة ترفض أن تجعل في قلبها مساحة لمخلوق؛ لأن قلبها مليء بمحبة الخالق وحده .

فعائشة تطلب من الله أن يمن عليها بأن يعطف عليها مشايخها وأهل الولاء، خاصة شيخها إسماعيل . حيث تقول : (الكامل) [126]

وَتَمُنُّ بِالعَطْفِ الجَلِيْلِ عَلَيَّ مِنْ أَهْلِ الوَلاءِ فَيُسْعِفُونِي وَيَجْبُرُوا

وَبِالخُصُوصِ إِمَامُهُمْ وَكَبِيْرُهُمْ العَارِفُ القُطْبُ الوَلِيُّ الأَشْهَرُ

جَاهِي وَسِيْلِي عُمْدَتِي كَهْفِي الذِي أَسْمُو بِهِ فَوْقَ السِّمَاكِ وَأَفْخَرُ

مُحْيٍ لِدِيْنِكَ عَبْدُ قَادِرِ اسْمُهُ وَبِأَرْضِ كَيْلانَ الوَسِيْمَةِ يَشْهَرُ

وَتَزِيدَنِي عَطْفًا عَلَيَّ مِنْ الذِي أَضْحَى خَلِيْفَتَهُ وَأَنْتَ الأَخْبَرُ

شَيْخِي وَأُسْتَاذِي المُهَابُ فَلَمْ أُطِقْ أَنِّـي أَقُومُ بِمَدْحِهِ وَأُقَرِرُ

ذُخْرِي جَمَالِ الدِّينِ سَمْعِيْلَ الذِي عِزُّ الكِبَارِ بِمَدِّهِ يُتَبَصَّرُ

وتارة تطلب من الله أن يجعل لها مددا من النبي المصطفى، وتطلب عطف الأولياء عليها، عطفا منهم يزيل عناءها . حيث تقول : (الخفيف)[127]

وَأَنِلْنِي أَعَلَى المَرَامِ وَأَقْصَى غَايَةِ السُؤْلِ فِي هَنًا وَرِضَاءِ

وَمِنَ المُصْطَفَى فَهَبْ لِي رَبِّي مَدَدًا دَائِمًا يُزِيْحُ غِطَائِي

---

[126] –السابق صـ .79

[127] ديوان فيض الفضل وجمع الشمل لعائشة الباعونية . تحقيق أسعد عرار صـ .124

وَاعْطِفْ الأَوْلِيَا عَلَيَّ وَجُدْ لِي بِحُنُوٍّ مِنْهُمُ يُزِيْلُ عَنَائِي

وتارة أخرى تطلب من الله أن يأمر نبيه أن يأمر شيخها أن يروها من شراب الحب، وأن يكون لها مدد دائم من شيخها لها ولابنها على الدوام، الأمر الذي يجعل الباحث يتساءل هل كانت عائشة الباعونية تجعل في حبها وعشقها لله وساطة ؟

تقول : (مجزوء الرمل)[128]

وَمُرِ المُخْتَارَ طَـهَ تَـاجَ أَعْيَانِ سُقَاتِكْ

يَأَمُرَنْ شَيْخِي المُفَدَّى قُدْوَتِي قُطْـبَ وُلاتِكْ

بِارتِوايَ مِنْ شَرَابِ الـ حُبِّ إِنّي مِنْ ظُمَاتِكْ

وَدَوَامِ المَـدِّ مِـنْـهُ لِي وَلِابْنِي مِنْ هِبَاتِكْ

ومن ذلك أيضا شربها للخمر والمنادمة لله، حيث تطلب أن يكون شرابها على يد شيخها جمال الدين، فهو تاجها ونهجها إلى حضرة قدس الله ، وشفيعها عند النبي الشفيع، حيث تقول :(البسيط)[129]

وَيَشْفَعُ اللُطْفُ فِي رَيِيّ بِهَا أَبَدَا بِلا تَنَاهٍ بِمَرْسُومٍ لِصَفْوَتِكُمْ

عَلَى يَدِ القُطْبِ أُسْتَاذِي وَمُعْتَمَدِي جَمَالِ دِيْنِكُمُ اْسمَاعِيْلَ زُلْفَتِكُمْ

تَاجِي وَنَهْجِي إِلَى حَضْرَاتِ قُدْسِكُمُ وَشَافِعِي لِشَفِيْعِي وَهْوَ خِيْرَتُكُمْ

[128] –السابق صـ .184

[129] –ديوان فيض الفضل وجمع الشمل لعائشة الباعونية . تحقيق أسعد عرار صـ .176

كل هذه الأمور وغيرها يوضح مدى تطور الفكر الصوفي في عصر الشاعرة، وكيف أصبح المريد لا يقوى على السير في دروب العشق إلا من خلال شيخ يكون دليله في تلك الرحلة الشاقة .

الأمر الذي أضفى قدسية على مقامية الشيخ، وأكسبه قداسة من قداسة من يدل على طريقه .

شعر عائشة الباعونية في العشق الإلهي :

لقد وصل إلينا من شعر عائشة الباعونية كم هائل من الشعر، والذي كان أغلبه في العشق الإلهي ، ومدح النبي، وقد استخدمت كل ألوان الافتنان الأدبي للتعبير عن مكنون مشاعرها، وعن ذلك الفيض الرباني والعطاء العظيم من كونها قريبة من الله، ومن ثمّ فقد أتت قصائدها بأحجام متفاوتة، منها المطولات، ومنها القصائد المتوسطة الحجم، كما تجد أيضا أنها كتبت على جميع الأوزان الشعرية، كما أنها كتبت على كم هائل من القوافي الشعرية، والمتأمل في شعر عائشة يجد أنها قد أغرقته عاطفة حب جياشة، وصلت بالشاعرة إلى نسج كل ألوان التعبيرات الجمالية، مسخرة لإدراك ذلك ألوان البديع الذي غلب على شعرها بصورة ملحوظة، ومما يلحظ على شعرها أيضا ظاهرة التكرار والتوازي، فالتكرار في شعرها يكاد يجعل من بعض قصائدها نظما تتكرر فيه الألفاظ والمعاني ، للحد الذي ربما تتكرر فيه اللفظة الواحدة عشرات المرات في القصيدة الواحدة، بل ربما تبدأ الأبيات بلفظة واحدة في بداية الشطر الأول من البيت، ويعزى هذا الأمر إلى حالة الوجد التي كانت تقاسيها الشاعرة .

ومما يلحظ أيضا على شعر عائشة أنها تخلط في بعض قصائدها بين اللغة العامية والفصيحة، بحيث تدخل بعض الكلمات العامية على القصيدة ليصح معها الوزن، كما

أنها تجور في بعض الأحيان على الفعل المضارع في الجملة ليصح معها الوزن، فتجزمه وحقه الرفع أو تنصبه وحقه الرفع، وكذلك في بعض قصائدها تنتهج طريقة الإنشاد والغناء في ضبط وزن القصيدة ، كما أنها قد تزيد تفعيلة في نهاية كل بيت زيادة على تفعيلات البحر ذاته، لكن هذا يحدث في عدد قليل جدا من قصائدها، وإنني أرجح أن مثل هذه الأبيات إنما كانت تقال لحضرة إنشاد للعوام، لا تقصد بها الشاعرة سوى ذلك . وربما بعضها كتب على المواليا الذي يأتي كثيرا ملحونا .

لكن جل ما وصل إلينا من شعر عائشة الباعونية يشي عن شخصية شاعرة تقارب الخنساء في عصرها، فالباعونية أنتجت كمّا هائلا من الشعر الصوفي، مما يجعلها تنافس فحول الشعراء في ذلك الميدان .

المحور الرابع : العشق الإلهي بين رابعة العدوية وعائشة الباعونية :

إن محاولة الموازنة بين رابعة العدوية وعائشة الباعونية أمر في غاية الصعوبة؛ لأننا نقف أمام كم هائل من الفروق البعيدة والمسافات الشاسعة بين الشاعرتين العاشقتين، بداية من الفترة الزمنية والعصور التي تفصل بينهما، حتى نصل إلى الفارق الضخم في النتاج الشعري الذى وصل إلينا من شعرهما، إلا أننا ننطلق من النقطة التي جمعت بينهما، وهي العشق الإلهي، فالشاعرتان قد عاشتا ألوان العشق الإلهي بصورة تصف كيف بلغت المرأة المسلمة درجة التفاني في الذات الإلهية، وكيف أصبح قلبها معلقا بحب الله، وكيف سمت غايتها في الحب لذات الله وحده، فلا تطمع في جنة ولا تخشى نارا، وعندما يحين بنا الوقوف على الفوارق التى بين الشاعرتين فلنا أن نبدأ من لحظاتهما الأولى في الحياة حتى وفاتها، على النحو الآتي:

المولد والنشأة :

إن الفارق الزمني الذي يفصل بين رابعة العدوية وعائشة الباعونية قرون من الزمان، فقد ولدت رابعة في ظروف قاسية من فقر ويتم ثم استعباد ، الأمر الذي نجد نقيضه عند عائشة التي ولدت في بيت علم ورياسة ووجاهة، بين علماء وفقهاء وقضاة في بيت عز ومنعة، الأمر الذي يفسر طريقة تناول كل منهما للعشق الإلهي والزهد في الحياة، فرابعة انطوت على ذاتها وتركت كل الخلق لتتعلق بالخالق وحده، بينما عائشة كانت مندمجة في الحياة الدنيا، تزوجت وأنجبت ولم تنقطع عن الحياة.

شخصيتيهما التاريخية والأدبية:

لقد دار حول شخصية رابعة العدوية من الجانب التاريخي والأدبي إرهاصات، حولت شخصية رابعة العدوية إلى شخصية أسطورية، تدور حولها الحكايات، وتنسج حولها الأساطير، وربما يعزى ذلك إلى قلة المصادر التى تحدثت عنها بدقة، فلا نكاد نجد حديثا عن رابعة يفي بحياتها إلا ما أورده فريد الدين العطار عنها، فأصبحت شخصية رابعة من الشخصيات التى يمكن تحميلها عدة أحداث تاريخية ربما في أزمان مختلفة ومتباعدة، وربما نسبوا إليها بعض الأقوال الأدبية والأشعار التي يشترك معها غيرها فيها، فتنسب لها ولغيرها في آن واحد .

بينما كان لقرب زمن عائشة الباعونية من عصور التدوين، وما قد سجلته هي بنفسها عن نفسها بخط يدها، الأمر الذى جعل حياة عائشة الباعونية تصل إلينا واضحة المعالم، تامة النسب، معروف عنها أكثر تفاصيل حياتها تاريخيا وأدبيا، فوصلت إلينا شخصيتها واضحة ليس من خلال ما قيل عنها فحسب، بل من خلال أشعارها التى وصلت إلينا

مخطوطة بخط يدها، الأمر الذي يخلق فارقا كبيرا بين شخصيتي رابعة وعائشة من الجانبين التاريخي والأدبي

مفهوم العشق لديهما :

لقد انقطعت رابعة عن الناس والدنيا في كوخ صغير، تعبد الله فيه وتتقرب إليه؛ لتخلص به كسلطة عليا من ظلم البشر وطغيانهم، فرأت أن الخلاص الوحيد لها هو الانقطاع لحب الله وترك ما سواه والبعد عن كل ألوان وملذات الحياة، وليس هذا فحسب، بل كانت ترى أن العاشق لابد أن يتلذذ بلوعته في حب مولاه، ولم تكن رابعة تشعر بألم وقت استغراقها في محبة الله، ترى الحزن والبكاء آية العشق والمحبة، وترى أن النحول علامة الصدق في ذلك.

بينما كانت عائشة ترى غير ذلك، فلم تنقطع عائشة عن الحياة الدنيا وملذاتها، بل مارست حياتها كأنثى، فتزوجت وأنجبت، ولم تجد أن ذلك الأمر عائقا لها في ممارسة عشقها لربها والتقرب منه. كما أن عائشة تجاهد للترقي في درجات القرب من ربها، وتعاتب معشوقها على صده وهجره لها، عتابا يصلح أن يكون في حب مادي، كما ترى أن العشق اصطفاء من الله لخاصته لا حيلة فيه .

غايتهما في العشق :

من الأمور التي أكاد أجزم أن رابعة وعائشة قد اتفقتا فيها، أمر الغاية من العشق، فرابعة طوال رحلتها مع الله تبحث عن غاية واحدة هي رضا الله، حتى أنها في أصعب الظروف تسأل الله هل أنت راض عني؟ وكذلك الأمر عند عائشة الباعونية، فقد كانت تبحث عن غاية الرضا والقبول بأن تكون بين عبيد الله، وتلح على ذلك بتكراره في أشعارها

في مواضع متعددة، كما تتفقان في غاية واحدة وهي حب الله لذاته، لا طمعا في جنة ولا خوفا من نار، الأمر الذي يصف مدى صدق محبتهما لله .

منهج العشق الإلهي بين رابعة العدوية وعائشة الباعونية:

لقد اختلف منهج رابعة العدوية عن منهج عائشة الباعونية في العشق الإلهي، ففي الوقت الذي رفضت فيه رابعة كل الخلق وانقطعت فقط للخالق، لا تترك مساحة في قلبها لغيرالله، فقلبها مملوء بمحبة الخالق فلا مجال فيه لمحبة مخلوق، نجد أن عائشة فتحت باب الحب على مصراعيه، فاتخذت نهج مشايخها سبيلا للوصول لمحبة الله، فقدست مقام الشيخ، وجعلته بابا من أبواب بلوغها وصل الله وقربه، كما لا يخفى على من يقرأ ديوانها مدى حبها لرسول الله والتعلق به، فتراه الشفيع والمنقذ يوم القيامة، كما تراه خير سقاة الله لخمر محبة الله، يسقيها لمن يصطفيه الله.

فالفارق واضح بين منهج رابعة ومنهج عائشة في تناول العشق الإلهي، وهذا ربما مرجعة لحالة الانطواء التي فرضتها رابعة على نفسها بسبب ما قاسته من ظروف، وأيضا ربما يعزى ذلك أيضا للبيئة التي نشأت فيها عائشة، فهي بيئة صوفية تعج بالعلماء الذين اتخذتهم عائشة قدوة لها، فما استطاعت أن تعبر سبيل القرب من الله إلا من خلال ما تعلمته منهم.

أشعارهما :

لا يمكن هنا الموازنة بين شعر رابعة العدوية وعائشة الباعونية، ففي الوقت الذي لم يصلنا من شعر رابعة سوى النذر القليل، والذي ينسب إليها على حذر، قد وصل إلينا كم هائل من شعر عائشة الباعونية، منه المحقق كديوان " فيض الفضل وجمع الشمل " ،

ومنه أيضا المخطوط الذي ينتظر التحقيق ، فشعر رابعة بسبب ندرته يقف كحصاة إلى جوار جبل ضخم من نتاج عائشة الباعونية.

أما من الناحية الفنية فشعر رابعة يصعب الحكم عليه لقلته وندرته، غير أنه عند النظر في ما نسب إليها من أشعار، نجد أنها في جملتها أبيات جيدة، حافظت فيها على شكل القصيدة العمودية، غير أن معظم تلك الأشعار كان يقع بين النتف والقطع. بينما جاء شعر عائشة بكم هائل كما أسلفت، وتصح نسبته إليها، معنون القصائد، معلوم الديوان، وهو شعر غزير رصين، حافظت فيه على شكل القصيدة العمودية، وجددت بعض الأوزان للإنشاد. يتسم شعرها بسعة المعنى ودقة التعبير وبساطة اللفظ، ترسم من خلاله صورا جمالية توضح مدى سعة خيالها ، تحمل شعرها كمّا هائلا من المصطلحات الصوفية عن المحبة والعرفان ودرجات القرب من الله ، غير أنها خلطت في بعض قصائدها بين العامية والفصيحة على النحو سالف الذكر.

الخاتمة :

تظل المرأة العربية طاقة نور في تراثنا العربي، وليست شقيقة الرجال في الأدب والثقافة والمعرفة فحسب، بل منافسا لهم على الفحولة في كل مجالات الدين والدنيا، فلم تترك المرأة العربية ميدانا من ميادين الحياة إلا وكانت بجوار الرجل فيه، حتى في ميدان العشق الإلهي أثبتت المرأة مدى قدرتها على خوض تلك البحور المتلاطمة الأمواج، فراحت تضع للعشق قواعد وعلامات ودلائل، تنافس في تلك الرياضة الروحية كبار المتصوفة من الرجال.

وقد ظفر البحث بشخصيتين عظيمتين من أعلام النساء في التصوف الإسلامي على امتداد حقبه الزمنية، واتخذ من شخصية رابعة العدوية وشخصية عائشة الباعونية نموذجا

للمرأة المسلمة التى خاضت غمار العشق الإلهي، وأثبتت مدى قدرتها على إنتاج ذلك شعرا يصف منهجية كل منهما، ورحلة كل منهما في الفناء في ذات الله والتقرب منه .

وقد جاء البحث ليحمل عنوان:"العشق الإلهي في أشعار النساء. رابعة العدوية وعائشة الباعونية نموذجا." وقد جاء البحث في مقدمة وأربعة محاور .

- مقدمة:
- المحور الأول: العشق الإلهي في أشعار النساء.
- المحور الثاني : العشق الإلهي في شعر رابعة العدوية .
- المحور الثالث : العشق الإلهي في شعر عائشة الباعونية .
- المحور الرابع: العشق الإلهي بين رابعة العدوية وعائشة الباعونية.

النتائج :

وقد توصل البحث إلى مجموعة من النتائج من أهمها ما يلي:

- قدرة المرأة العربية على ممارسة أعلى درجات الرياضة الروحية من خلال ممارسة العشق الإلهي.
- أن المرأة العربية قادرة على منافسة كبار المتصوفة في مجال العشق الإلهي .
- قدرة المرأة العربية متمثلة في عائشة الباعونية على إنتاج كم هائل من الأشعار التى تتناول العشق الإلهي والتصوف الإسلامي، والذي يفوق ما أنتجه الرجال في نفس الميدان.
- أن رابعة العدوية أول من أدخلت لفظ العشق الإلهي في الشعر الصوفي .
- هناك الكثيرات من النساء اللاتي تحدثن عن العشق الإلهي والزهد شعرا على امتداد عصور التصوف.

- أن الحكم على شعر رابعة العدوية في العشق الإلهي في غاية الصعوبة، وذلك لقلة ما وصل إلينا من شعرها، وأن ما وصل إلينا ليس بقطعي الثبوت لها.
- تطور الفكر الصوفي في الفترة الزمنية بين رابعة العدوية وعائشة الباعونية، حيث ظهر ذلك التطور في فكر عائشة وفي أشعارها.
- أن هناك فوارق كبيرة بين رابعة العدوية وعائشة الباعونية في شتى الجوانب الحياتية والشخصية والمنهجية، والشعرية، بحيث تختلف حياة رابعة الفقيرة والمستعبدة عن حياة عائشة ربيبة بيت العلم والفقه والقضاء الباعوني، كذلك ما أنتجته رابعة شعرا أو ما نسب إليها لا يمثل شيئا مقابل ما وصلنا من أشعار عائشة الباعونية.
- تأثر شعر المرأة بكونها الأنثوي من خلال ظهور بعض الألفاظ النسوية مثل:(ثدي الهجر – مرضعه – كسرت جناحي – وغيرها)

التوصيات :

ومن ثمّ يوصي الباحث ببعض النقاط التالية:

- دراسة دور المرأة في تطور الفكر الصوفي.
- تحقيق أشعار عائشة الباعونية المخطوطة.
- دراسة الإيقاع في شعر عائشة الباعونية .

المراجع

أولا : القرآن الكريم .

ثانيا :المصادر والمراجع :

- إبداع اللغة في الرمز الخمري عند شاعرة المتصوفة عائشة الباعونية . عباس عبد الحليم عباس . بحث منشور في مجلة نزوى الإلكترونية العدد ٢٠٠٩/٧/١٨/٥٢م.
- اتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين . المرتضى الزبيدي . ط دار الكتب العلمية ٢٠٢٠م.ج ٩
- إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي ط ابن حزم ٢٠٠٥م.
- أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام . عمر رضا كحالة .ط٢ مؤسسة الراسالة ج١ .
- الأعلام للزركلي ٣/ ٢٤١. دار العلم للملايين الطبعة: الخامسة عشر – مايو ٢٠٠٢ م .
- إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون لإسماعيل باشا . دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان ٢٠٠٨م.
- البداية والنهاية لابن كثير ط دار الفكر ١٩٨٦ م.
- تاريخ بغداد لأبي بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي تحقيق: بشار عواد معروف ، ط: دار الغرب الإسلامي – بيروت الطبعة: الأولى٢٠٠٢ م.
- تذكرة الأولياء فريد الدين العطار ترجمة وتقديم وتعليق منال اليمني عبد العزيز ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٦م . ج١

- التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق . زكي مبارك ط مؤسسة هنداوي للتعليم والنشر مصر ٢٠١٢م جـ١ .
- جامع الأصول في أحاديث الرسول لابن الأثير ، ط دار ابن الأثير، ط الثالثة ٢٠١٦م .
- در الحبب في تاريخ أعيان حلب لابن الحنبلي .تحقيق محمودالفاخوري ويحيى عبارة .ط وزارة الثقافة دمشق ١٩٧٣م جـ١.
- الدر المنثور في طبقات ربات الخدور زينب فواز ط١ مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة –مصر ٢٠١٤م
- ديوان فيض الفضل وجمع الشمل لعائشة الباعونية . تحقيق مهدي أسعد عرار ط دار الكتب العلمية بيروت ٢٠١٠م .
- رابعة العدوية . إعداد وتقديم خديجة القماح ومحمد علي ط٢ مكتبة رجب ١٩٨٣م.
- الرسالة القشيرية. الإمام أبي القاسم عبد الكرين بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة القشيري. ط١ البابي الحلبي مصر ١٩٤٠م.
- الروض الفائق في المواعظ والرقائق الشيخ سعيد الحريفيش ط مكتبة البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٩٤٩م جـ ١.
- سير أعلام النبلاء للذهبي . ط ٣ مؤسسة الرسالة١٩٨٥م.ج٨.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب. لابن العماد بتحقيق الأرناؤوط ط دار ابن كثير ٢٠٠٦م .ج١.
- شرح حال الأولياء تصنيف الشيخ عز الدين بن عبد السلام بن غانم المقدسي مخطوط رقم ١٦٤١ عربي بالمكتبة الأهلية بباريس رقم٢٥٣أ
- شرح مقامات الحريري للشريشي،ط المكتبة العصرية ٢٠٠٩م.ج ٤.

- شهيدة العشق الإلهي رابعة العدوية عبد الرحمن بدوي ط٢ مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٦٢م .
- شهيرات النساء في العالم الإسلامي بقلم صاحبة السمو الأميرة المصرية قدرية حسين نقله إلى العربية عبد العزيز أمين الخانجي ط١ مطبعة السعادة بمصر ١٩٢٤م ج٢.
- صفة الصفوة جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، ط دار الحديث، القاهرة، مصر ٢٠٠٠م.ج ٤
- طبقات الأولياء لابن الملقن بتحقيق: نور الدين شريبه ط: مكتبة الخانجي، بالقاهرة الطبعة: الثانية١٩٩٤ م.
- طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي . تحقيق أحمد الشرباصي .ط٢ مؤسسة دار الشعب مصر ١٩٩٨م.
- طبقات الصوفية للمناوي تحقيق محمد أديب الجادر. ط دار صادر بيروت ١٩٩٩م.
- طبقات الصوفية ويليه ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات لأبي عبد الرحمن السلمي . تحقيق محمد عبد القادر عطا. ط ٢ دار الكتب العلمية ٢٠٠٣م.
- الطبقات الكبرى المسمى بلواقح الأنوار في طبقات الأخيار للشعراني ، ط دار الكتب العلمية ٢٠٠٥م.
- عائشة الباعونية الدمشقية أشهر أعلام دمشق أواخر عهد المماليك . فارس أحمد علاوي .ط دار معد للطباعة والنشر والتوزيع . دمشق سوريا ١٩٩٤م.
- عائشة الباعونية شاعرة .حسن الربابعة ، ط دار الهلال للترجمة اربد ١٩٩٨م .
- عائشة الباعونية شاعرة الشام وفاضلة الزمان . محمد محمود كالو، ط دار المجد للنشر، صنعاء ٢٠٢٠م .
- عائشة الباعونية فاضلة الزمان للصويركي. ط دار الكندي للنشر والتوزيع ٢٠٠٦م.
- العبر .ديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون . ط بيت الأفكار الدولية الأردن ٢٠١٨م.
- عقلاء المجانين للنيسابوري .ط دمشق ١٩٢٤م .

- عيون التواريخ . محمد بن شاكر الكتبي .تحقيق فيصل السامر ونبيله عبد المنعم ط.منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراق ١٩٨٤م.
- قوت القلوب في معاملة المحبوب لأبي بكر المكي ط دار صادر بيروت ١٩٩١م.
- الكوائب السائرة بأعيان المائة العاشرة للغزي .ط دار الكتب العلمية مصر ٢٠٠٦م.
- متعة الأذهان من التمتع بالأقران بين تراجم الشيوخ والأقران لابن طولون .ط دار صادر بيروت ١٩٩٩م.
- مصارع العشاق لجعفر بن أحمد بن الحسين السراج.ط١ مؤسسة هنداوي مصر ٢٠١٧م جـ١
- معجم البلدان ياقوت الحموي ط ٢ دار صادر بيروت ١٩٩٥م .ج٤ .
- معجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى سنة ٢٠٠٢م .لكامل الجبوري. ط دار الكتب العلمية ٢٠٠٢م.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة.ابن تغري بردي. ط دار الكتب المصرية ١٩٢٩م ج٢
- نساء من التاريخ. لأحمد خليل جمعة، ط٢ اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع. دمشق. بيروت ٢٠٠٠م.
- نظم العقيان في أعيان الأعيان للسيوطي، تحرير فيليب حتى ط المكتبة العلمية بيروت ١٩٢٧ م.
- هدية العارفين أسماء المؤلفين وأثار المصنفين لإسماعيل باشا البغدادي .ط مؤسسة التاريخ العربي لبنان ٢٠١٧م.
- الوافي بالوفيات للصفدي. ط دار إحياء التراث العربي ٢٠٠٠م ج١٤.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان تحقيق إحسان عباس ط صادر بيروت ١٩٧٨م ج٢ .

Divine Love in Women's Poetry

(Raba'a Al-Adawiya and Aisha Al-Baouniya as a Model)

Abstract

This research tackles the divine love in women's poetry, and the extent of women's contribution to the expression of this spiritual practice. The researcher has chosen from Rabaa Al-Adawiya and Aisha Al-Baouniya as a model for the study. In addition, the research balanced between the poetry of the two poets. The study is entitled "Divine Love in Women's Poetry" (Raba'a Al-Adawiya and Aisha Al-Baouniya as a Model)

The research is divided into an introduction, four main sections and a conclusion as follows:

- Introduction
- The (1st) first section: (divine love in women's poetry)
- The (2nd) second section: (divine love in the poetry of Raba'a Al-Adawiya)
- The (3rd) third section: (divine love in the poetry of Aisha Al-Baouniya)
- The (4th) fourth section: (divine love between Raba'a Al-Adawiya and Aisha Al-Baouniya)
- Conclusion.
- A list of sources and references.

Keywords :divine love, women's poetry, Raba'a Al-Adawiya, Aisha Al-Baouniya,